جمجوم

قصص قصيرة

العودة

جـمجـــوم

متتاليات قصصية

جـمجـوم متتاليات قصصيّة

تأليف: **أحمد عودة**

الطبعة الثانية 2022م/1443هـ

مراجعة وتحقيق وتقديم: مظهر عاصف

دار الجيل العربي للنشر والتوزيع

عمان-الأردن

هاتف: 0798789591

E-mail: aljeelalarabi@yahoo.com

جميع الحقوق محفوظة لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو استنساخه أو نقله كليا أو جزئيا — في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطرق إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها — دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

Copyright © All Rights Reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the Publisher.

الإخراج الفني والتنسيق: محمد أيوب

تصميم الغلاف: ليزا شيت

أحمد عودة

جـمجـوم

متتاليات قصصيّة

مراجعة وتحقيق وتقديم:

مظهر عاصف

المحتويات

تقديم	7
تعريف بالكاتب	10
القسم الأول: التعمري	**15**
كلب الشيخ	17
لعبةُ القط	22
قليل من الغضب	30
خطوة إلى الخلاص	35
ساعة الفصـــل	42
البكاء على جثة الغـد	48
أشياء غـير الـحـــــزن	55
اليوم خمرٌ وغدًا خمر	59
رحـلـة اليأس	64
جلد الأفعى	68
القسم الثاني:جـمـجـوم	**73**
للأمل أيضًا بقيـة	75
جمجوم يأكل الخبز طـريا	82
جمجوم يقول: لا	87

في العراء يولد الصغار	93
الـعـــــــراء	99
صهيل الغضـب	106
الضـربـة الأولـى	111
الدليـــــــــل	121
البرغـــــوث	124
ليس أوان الحزن	127
جمجوم لا يحني رأسـه	136

تقديم

مظهر عاصف

صدرت الطبعة الأولى من هذه المجموعة القصصية "جمجوم" للأديب أحمد عودة في سنة 1982/ 1402هـ، عن دار الرشيد للنشر / بغداد، ضمن سلسلة القصة والمسرحية التي كانت تصدرها وزارة الثقافة والإعلام في الجمهورية العراقية، تحت رقم الإيداع في المكتبة الوطنية – بغداد: (512).

والمجموعة وإن جاءت على نسق القصة القصيرة؛ إلا أن قصصها جاءت مترابطة في متتاليات أحداثٍ درامية متصلة ببعضها البعض؛ عبر جيلين متشابهين لا يخلو كلٌّ جيل منهما مِن الصراعات الطبقية والاجتماعية، والمكائد والدسائس التي يغلب عليها طابع الكوميديا السوداء أحيانا، والتراجيديا أحيانا أخرى.

يتنقل الكاتب مِن أسلوب المباشرة إلى الالتفات ثم يعودُ للسردِ على لسان الراوي؛ الذي ينصهرُ في كثير من الأحيان مع الشخصية، في جملٍ متتاليةٍ سريعة واقتباسات داخلية كجمل

معترضةٍ في السياق، وهذ نمط حداثي في الكتابة يساعد القارئ على تفتيت الحدث صوريًّا من عدة رؤى بصرية متخيَّلة للحدث أو الشخصية ضمن حالتها النفسية، سيما حين يستخدم النص والنص الموازي له في القصة الواحدة دون أن يستطرد كثيرًا في النص الموازي.

أهمُّ ما يميز هذه المجموعة هو عنصر التشويق الذي يشدُّ عزيمة القارئ لمتابعة الركض وراء الحدث من قصةٍ لأخرى، ناهيك عن كيمياء التفاعل التي تنشأ بين مجريات الأحداث والتوقعات الذاتية، وعلى الرغم أن القصص تتحدث عن حقبة زمنية قديمة نوعا ما حيث المختار والقرية والدواب والكلاب والذئاب والضباع وبعض الأساطير إلا أن الإسقاطات الواقعية بكاملها مُستقبليَّة الطرح والمغزى، حيث يذكي الكاتب برشاقة قلمه الآتي عبر الصراعات الطبقية والفقر والحاجة والحرمان، لا سيما في القسم الثاني من مجموعته، حتى يكاد يكون قد أحاط بجميع حالات الفقر وشرَّحها نفسيًّا واجتماعيًّا دون أن يغفل عن محور الفكرة العامة، ولأن أبطال مجموعته غير نمطيين وصادقين مع ذواتهم بشكل غريب عبر انتمائهم لحياتهم والأرض والبيت والقرية التي يتسم سكانها بالسوداوية في أغلب الأحيان، فقد جاءت أحاديث النفس مرآة لما قد يشعر به القارئ في صراعاته الذاتية الداخلية، ولهذا فقد يُحسب للكاتب قدرته على محاكاة المُتلقي عبر الشخصيات الرئيسية في

المجموعة.

تحتوي المجموعة على إحدى وعشرين قصة قصيرة موزعة على قسمين:

القسم الأول تحت عنوان التعمري، ويحمل القصص التالية: جلد الأفعى، رحلة اليأس، كلب الشيخ، لعبة القط، قليل من الغضب، خطوة إلى الخلاص، ساعة الفصل، البكاء على جثة الغد، أشياء غير الحزن، اليوم خمر وغدا خمر، للأمل أيضا بقية.

القسم الثاني تحت عنوان جمجوم، ويحمل القصص التالية: للأمل أيضا بقية، جمجوم يأكل الخبز طريا، جمجموم يقول: لا، في العراء يولد الصغار، العراء، صهيل الغضب، الضربة الأولى، الدليل، البرغوث، ليس أوان الحزن، جمجوم لا يحني رأسه.

تعريف بالكاتب

أحمد عودة هو أديب أردني، من مواليد قرية إذنبَّة من قضاء الرملة في فلسطين المحتلة عام 1945.

يعد أحد أعمدة رابطة الكتاب الأردنيين، وأحد مؤسسيها الأوائل، وعضو في اتحاد الكتّاب العرب. احترف كتابة القصة والرواية ونصوص المسرح قبل احترافه كتابة المسلسلات المتلفزة، وحيث إنه من روّاد المشهد الثقافي الأردني فقد كانَ يرفدُ الصحف والمجلات الأردنية والعربية بمقالات نقدية أدبية، وببعض البحوث الفكرية واللغوية.

تمحورت أعماله الورقية حول القضية الفلسطينية بشكل كبير، وإن تطرَّق من خلالها لكينونة الإنسان وعلاقته مع الأرض والآخر في كل مكان، ناهيك عن قضايا الأمة العربية بمجتمعاتها وهمومها المشتركة، وامتازت لغته العربية بالجزالة السلسلة كانعكاسٍ تام لمهنتهِ التي مارسها كمدرس للغة العربية في مدارس القدس وعمان حتى تقاعده، وتفرّغه الكامل للإنتاج الأدبي.

يعتبر من أوائل الروائيين العرب الذين اتجهوا لكتابة

المسلسلات التلفزيونية مواكبةً منهم لعصر الصورة والصوت، ومن الرواد الذين نقلوا اللهجة الأردنية العامية والريفية والبدوية عبر مسلسلاتهم إلى الشاشات العربية.

وافته المنية في حي الربوة في ماركا الجنوبية، في العاصمة الأردنية عمان. في مساء 9 نيسان /إبريل من عام 2016م.

مؤلّفاته:

حين لا ينفع البكاء - قصص - عمان - مكتبة الشرق - 1973

زعتر التل - قصص - عمان - رابطة الكتاب الأردنيين - 1979

المنعطف - قصص بغداد - وزارة الثقافة - 1980

الولادة والموت - قصص - اتحاد الكتاب العرب - 1982

جمجوم - قصص - بغداد - وزارة الثقافة والإعلام - 1982

ساعات الصفر - رواية - بيروت - دار الوحدة - 1983.

الفواصل - قصص - دمشق - اتحاد الكتاب العرب - 1984.

الكلب المخدوع - قصص للفتيان - عمان - دار ابن رشد

- 1986.

- عيون المدافع - قصص - دمشق - اتحاد الكتاب العرب - 1995
- الفخ- قصص - عمان - وزارة الثقافة - 1996.
- الباشكار - رواية- عمان - دار الينابيع – 1996

مسرحيات:

- الكنـــــز
- أصـل المسألـة
- شلــة الأنـس

أفلام تلفزيونية:

- المريض
- عذابـات حلـوم
- طلقـة الرحمـة
- الانتظـار

مسلسلات متلفزة:

- ويبقـى الأمــل - باللهجة الأردنية
- الفـرح المنسـي - باللهجة الأردنية
- الحائـــــر - باللهجة الأردنية

- حــارة الزيـن - باللهجة الأردنية
- الريحانيـــة - باللهجة الأردنية
- خط النهاية- باللهجة الأردنية
- خــط البدايـة - باللهجة السعودية
- الزمـــن دوار - باللهجة السعودية
- مرايــا الحـب - باللهجة المصرية
- هــذا قـراري - باللهجة السورية
- الأمانــي المـرة - باللهجة السورية

القسم الأول

التعمري

كلب الشيخ

استدار «السبتي» لينام على جنبه الآخر. عضّت الشمس جفونه. تململ. سحب على رأسهِ الغطاء. صفع سمعَه نباحٌ متصل. هب مذعورًا. لملم أطراف جلبابه المتسخ. نظر إلى حزمة الشعاع المتدفقة من الكوّة في أعلى الجدار. كل خيط منها عصا غليظة في يد المختار؛ يهوي بها عليه. كيف استسلم للنوم وترك الكلبة تنبح؟!

حين التحق بخدمته كانت أوامر المختار له واضحة صارمة: الكلبة هي الأساس. هزَّ رأسه متفهمًا وهو يلهث من الجري وصدره يحبل بالفرح، لقد سابق الكلبة فسبقها وحظي بالوظيفة من دون الآخرين. لقد غمروه بالحسد وذهبوا يحملون على أعناقهم جثث الخيبة والفشل. لم يرفض أي منهم شرطه قبل السباق: الكلبة في عهدة الفائز تلازمُه كظلّه؛ ست قوائم دائما معًا وبلا انفصال.

ولما سبقَ الكلبة قال له بصوت حرثَ سعادته: قبل بزوغ الشمس تنهض، ولدى تواريها تطلق عينيك في الظلمة تطاردُ

بهما اللصوص. وأضاف شرطًا آخر لم يكن من قبل: تنظف الكلبة وتخرج بها إلى البلدة تجمع الإتاوات والهبات. ووضعَ أصبعيه في عينيه؛ حذار فمن كان قبلك أخفى قلادةً دفنتها معه، وبسطَ يده على صدره العريض. «الأمانة عنوان حياتي، أمَّا الكلبة فستكون في هاتين»... وأشارَ إلى عينيهِ. قال المختار بصوته الغليظ:

- سأقتلعهما إن أصابها سوء.

لا يزال يذكر أول يوم له في الخدمة. سار بجانب الكلبة ويده تداعب السلسلة في عنقها وطوقها الأصفر. مرّ ببلدة تتوسدُ ذراع جبل أخضـر. خرج أهلها الحلافشة مستقبلين. اصطف الرجال في حلقة واسعة يدبكون ويغنون. النسوة وقفنَ من بعيد يزغردن. الأطفال يعرضون على الكلبة الحلوى فيهتز رأسها بالرفض. يقف في وسط الحلقة مع الكلبة التي تُخرج لسانها للجميع. تقدَّمَ رجل طاعن في السن، تفحصها وقال:

- كلبة المختار عطشى.

أحضَـروا صفيحةً تلَوَّن الماءُ بلونها الفضي. شمّتها وأشاحت بوجهها تقززًا واستصغارًا. نظروا إلى الرجلِ المسن غاضبين. تفحَّص السبتي وقال:

- لستُ مخطئًا فهذا هو العطشان.

رفعَ الرجلُ الصفيحة إلى فمه. نظرَ إلى وجههِ في الماء، رآه متورّدًا نظيفًا. أحسَّ أن ذلك سـر ما يلاقيه من إعجاب. ما رأى من قبل ماء بمثل هذا الصفاء. يشربه. يمسح شاربَه الكث. يقول الرجل المسن.

- إنها جائعة، انحروا لها كبشًا سمينًا.

جاءوا بعاصفةٍ من رائحة شهية وبخار. سالَ لعابه وتلمَّظ. تساقطت عيون الصغار عليه... شاردة النظرات. أُقعِدَ على فراشٍ مخملي وثير. جلسَ بين أيديهم هيكلًا عظميًّا. هبطت عليه البهجة دوحة وارفة. تحسس وجهه ويديه، تأكد له أنه لا يحلم. إنهم حقًا استقبلوه وأطعموه. ما عرف من قبل غير ماء القني؛ واللحم ما عرفه في غير المواسم. أمّا فراشه فكان دائمًا التراب الأعزل. لا شك أن فوزه بالوظيفة من دون الآخرين هو المسؤول عمّا يلاقيه من احترام. إنهم يهابونه ويخشون سطوته وحين رأى النسوة مقبلات بالقلائد يطوقن بها عنق الكلبة. قال: إن هيبته في نفوسهم ليس لها حدود. لم يكن يشأ لهذه المظاهر أن تنتهي، ولكنه المساء هبط بلا مقدمات، وتحذيرُ المختار يطنّ في أذنيه: "الكلبة تنام في الحظيرة". قال لهم بزهو:

- حبذا لو بقيت ولكن...

عاد يحمل بطنه من التخمة بين يديه والقلائد حول الكلبة تزف بصليلها خواطره. تنبّه إلى نباح الكلبة من جديد. قفز قفزةً واسعةَ أوصلته الباب. ألفاها تحوم مغضبة وتنظر إليه معاتبة. ربتَ على عنقها المكتنزة. قبض على السلسلة وسار بها. قبل أن يبلغ الدار، جذبته بعنف فيما شـرعت تطلق نباحًا شرسًا عاليًا وأذناها انتصبتا رمحين مشـرعين. سمع من بعيد نباحًا مختلطًا لأكثر من كلب ورأى زوبعة من غبار تحجب الأفق. حين اقترب منها شاهدَ كلابًا كثيرة تتعارك. جاذبته الكلبة السلسلة، حاول أن يشدّها ويواصل السير؛ واجهته متحفزة وفي عينيها نظرة تهديد ووعيد. طنّ في أذنه صوت المختار محذرًا: «الكلبة هي الأساس». تصور حاله بغيرها. شدّ السلسلة، بلهفة غريق إلى قشةٍ طافية، فانقطعت. وانطلقت الكلبة تعدو إلى المعمعة.

ثارت زوبعة غبار. نظرَ إلى السلسلة في يده. هز رأسه ومضـى باتجاه البلدة. «لا بأس سيستقبله الحلافشة بالرقص والزغاريد، وسينحرون له كبشًا سمينًا ويطوقونه بالقلائد والحلي؛ يعودُ بها للمختار وعندها ينسـى الكلبة ويفرح». جعلَ يطوّح بالسلسلة ويصفر طربًا. لفظت البيوت أهلها. والكل ينظر إليه نظرة شرود واتّهام. قال الرجل المسن وهو يدور حوله:

- أين الكلبة؟

- أنا عطشان وجائع.

صاحوا بصوت واحد:

- أين الكلبة؟

قلّب يديه حيرة. رأى الأيدي تمتدُّ نحوه غاضبة. تراجعَ مذعورا. جفّ حلقه. سقطت السلسلة من يده. تحلّقت من حولها النسوة يندبن. رأى غبارًا يقترب فأطلقَ ساقيه ليأتي بالكلبةِ حتى يشرب.

لعبةُ القط

امتدت الأيدي تفصل اللحم عن العظم. الحلافشة يجلسون القرفصاء أمام تلال اللحم والصنوبر والأرز. جاءوا ينتقمون من جوع مزمن. وكذا الكلاب خلا كلب التعمري تجمّعت خارج المضيف بلا نباح. لم يبق أي منها في بيت صاحبه ينبح. كلها ساقتها أنوفها إلى حيث تقام أضخم وليمة شهدتها البلدة في عمرها الطويل. الكلاب كالرجال لا يهمها السبب سواء أكانت الوليمة كما يدّعي المختار لهم؛ أم أنها احتفاء بعودة ابنه الغائب.

بدأ المختار مراسيم الأكل بالنظر إلى رؤوس الخراف المزروعة في الأطباق... ظلَّ ساكنًا. عين له على الكلاب المقعية وعين على أفواه الرجال وهم ينتقمون من الذبائح؛ يزدردون اللحم ويلقون بالعظم مجردًا للكلاب. تخيّلَ المدة التي ستظل هذه الأفواه أسيرة الكرم، ستلهج بذكره فيذيع صيته في القرى المجاورة فيحقد المخاتير عليه؛ ويأسف الناس على أنهم ليسوا حلافشة. أمّا هذه الكلاب فستحني رؤوسها له ولن تنبح عليه ولن تعض رجاله، سيُخرس هذه الكلاب.

وضع يده على فمه يخفي بها ابتسامة توالدت بسرعة مذهلة. لو لم يخفها في الوقت المناسب لاضطر أن يكذب بما يقنع به ابنه العائد برأس جديد ولسان جديد. هذا الابن ليس كشقيقه الأكبر «سعدو». لا يصدق وحسب ما يتناقلونه بأنه صعد إلى السماء ليلا وقطفَ نجومًا يضعها الآن تحت كوفيّته وعقاله، بل ويشيع في البلدة أنه رأى تلك النجوم. أسِف على أن سعدو متغيب لبضعة أيام وإلّا لكان يحتذي به هذا الابن الذي يعترف أنه مذ عاد قبل يومين لم يستطع أن يفهمه. تنبّه إلى أن يد ابنه لم تمتد إلى الزاد مثله بعد. قال بانزعاج ناثرًا أمامه اللحم:

- أنت لم تأكل؟

ردَّ عليه بأدب.

- ليس قبل أن تأكل أنت.

سَرَّهُ أن قال ذلك بصوت يسمعه الرجال والتعمري على وجه الخصوص؛ رغم زلاقة لسان هذا الابن لم تنسه السنون في الخارج ما له في نفسه من احترام ووجل. تركَ ابتسامته تمرح على وجهه بلا قيود. قال ويده تغوص في الصنوبر حتى الرسغ.

- بارك الله فيك.

كاد يغلبه مذاق السمن فينسيه مراقبة الأفواه وحساب المدة التي ستظل بها أسيرة الكرم.

لمحَ التعمري ينفض يده من الطعام ويتفحص الكلاب. اعترضت حلقَه حبّةُ أرز تحشـرج بها صدره. هبّ الرجال كلهم واقفين ليحضـروا الماء... التعمري وحده من ظل يرقب الكلاب كأنما لم يحدث للمختار شيء. سدد إليهِ نظرة مشتعلة بالريبة والغيظ. اقتنع أكثر بأن هذا الرجل وحده من سيمسخ وجه هذه الوليمة بادّعاء أنها فرحة أب بعودة ابنه الغائب. عاد ينظر إلى الرجال وهم يفترسون الذبائح.

وقفت ابتسامة مترددة على زاوية فمه واستلقى في صدره الفرح، «ماذا تجدي قطرة منه في بحر هؤلاء؟» ولما نظرَ إلى عيني «السبتي» وهو يناوله الماء قرأَ فيهما ما يمكن أن يكون صمام أمان لكلِّ ما يجري من حوادث. عادت الأطباق من أيدي الرجال عصفًا مأكولا، هرعت إليها الكلاب. أطربَ المختارَ زفيرُها وصوت العظم تحت أنيابها يتكسـر. تمدد الرجال ينكشون أسنانهم ويحتسون القهوة.

ظلَّ التعمري مشغولا بالنظر إلى الكلاب بحثًا عن كلبه الذي ربطه في الحظيرة، ويخشـى أن تكون الرائحة قد أغرته بقطع الحبل، وترك الغنم. صوّب المختار إليه نظرة ثابتة وقال ساخرًا:

- خيرًا فعلت يا تعمري.

ألقى الرجال على المختار نظرات اندهاش لما حسبوه إطراء مع ما يعرفونه من كره مزمن يكنه له. نظروا الى التعمري يغبطونه على هذه الحظوة. أردف المختار:

- فأنتَ لم تمد يدك إلى ألسنة الخراف.

طأطأ الذين التهموا الرؤوس رؤوسهم. ضحك المختار انبساطا وسخرية فأدركوا أن في الأمر نكتة لم يفهموها فسارعوا إلى الضحك. ظل التعمري صامتا يتلقى نظراتهم اليه وضحكاتهم بهدوء. انتظر حتى هدأت عاصفة الضحك.

- لساني طويل في الحق وحسب أيها المختار.

ثم استطرد وهو يرقب في عيني ابنه العائد نظرة تحد واتهام:

- بما أنك قطعت الوقت تراقبني فأنت تعرف إذن أن يدي لم تمتد إلى اللحم.

أحسَّ المختار بوقع الكلمات حادا قارصا. تشاغل بمسح شاربه ولحيته. استطرد التعمري بسخط وغضب:

- لم يكن في نيتي أن آتي مطلقا لولا الحياء.

ألقى المختار على السبتي نظرةً توقَّفَ بعدها عن سكب القهوة والقول منافقا:

- لماذا؟ ألقلة اللحم؟ خمسون كبشا ذبحتها بيدي هذه.

أطلق المختار العنان لضحكة حبيسة... قبل أن يحذو الرجال حذوه قال التعمري بهدوء وثقة:

- بل هي خمسة وعشرون.

تنحنح العائد وعدّل من جلسته. نظر اليه المختار بقلق. أدرك من ملامحه أنه سيقول ما يعتقده صحيحا.

- أبي شكا لي من التعمري، ولكن يعجبني الرجل الذي يقول رأيه بصراحة ودون تردد أو خوف.

فرش التعمري على وجهه نظرة امتنان، لم تتخلص بعد من شك في أن هذا الابن نسخة مكررة من أبيه وشقيقه سعدو. إن صدق حدسه فلا بأس أن يعلن أن الخراف التي ذبحها السبتي مسروقة وأن ليس بين هؤلاء الرجال واحد إلا وشكا للمختار من السرقة الليلية للغنم. وحده كان واثقًا أن المختار وابنه

سعدو ومعهما السبتي وراء هذه السـرقات. قال هذا للرجال ولكن لم يصدقه أحد.

قال العائد ينهي كلاما بدأه:

- الثبات على الرأى والمبدأ شيء جميل، هناك رجـال كثيرون فقدوا حياتهم من أجل كلمة حق نطقوا بها ولم يتراجعوا عنها.

زحفَ سـرور التعمري إلى المختار إبرا ومناخسَ سـرقت منـه الراحة والثبات. نقل عينيه على الرجال. رآهم يرخون آذانهم بما يشـي أن ابنه سيسـرق منه عقولهم. هذا الابن مذ عاد بشهادة الحقوق وهو يقول كلاما غريبا، عجيبا يدير الرأس. ليس من المستبعد أن يدير رؤوس هؤلاء حتى تغدو الكلاب أكثر ولاء له منهم.

يتحول الفراش الوثير من تحته إلى حزمة شوك. يتململ يقلق، قال يخطف من ابنه الحديث:

- إنك يا بني تقول كلاما وتذكر أسماء يصعب على هؤلاء الرجال نطقها، في حين يوجد في تاريخنا المجيد من ثبت على مبدأه وضحى بحياته لوجه الحق. فعلى سبيل المثال أبي الذي هو جدك كان .....

أخذ يبذر الكلام وعيناه مشغولتان بتصيد الإعجاب من الرجال. ولما اطمأن إلى أن الوليمة لم تذهب سدى. قال للتعمري بشماتة:

- والآن اسكب القهوة.

هز رأسه ممانعا وأشار إلى السبتي بحاجبيه:

- فليفعل من ذبح خمسين كبشا.

ضغط المختار على أسنانه غيظا. فمد التعمري ساقيه وقال ساخرا:

- قل الحقيقة أيها المختار، كم كبشا ذبحت؟

أطلق المختار زفرة هائلة. ألقى على ابنه نظرة مشحونة باللوم يحمله مسؤولية تمادي هذا الرجل. جابهه ابنه بنظرة مفادها «قل له الصدق» زغرد في صدر التعمري الفرح... وجد الفرصة مواتية ليعلن رأيه فيما يحدث في البلدة من سرقات. ثم يقرر أن يؤجل ذلك إلى فرصة أخرى؛ بعدما يتحقق أن هذا العائد ليس نسخة مكررة من أبيه وشقيقه سعدو. ينتبه إلى المختار وهو يرميه بنظرة متوعدة يقول مخاطبا الابن ليفجر من صدر المختار بركان الغيظ.

- أليس هذا ما تسمونه معشـر المحامين بالصـراحة في القول؟!

هز رأسه موافقا فيما أخذ المختار يهرش ذقنه ويراقـب الرجال؛ ليقرأ على وجوههم احتمال أن تكون الكلاب أوفى منهم أم أنهم سيظلون أوفى من الكلاب.

قليل من الغضب

هذا الإحساس بالغبن يلازم التعمري مـذ كان صغيرا. بالضبط منذ أن استولى على ثقة أمه فتركته يسعى في البلدة وحده بعيدا عن عينيها وأذيال ثوبها، حافيا، حليق الرأس. من يومها وهو يلاحظ أن كل شيء في البلدة موسوم بالمختار، حتى الهواء يدخل إليها من أنفه. أما ابنه سعدو فهو يستولي من دونه على كل شي، ولا يترك له شيئا.

مذ كان صغيرا وسعدو هذا يحرمه الراحة والنوم. يقتحم قلب وصيفة ابنة عمه ويمضغ عقلها. مذ كانت طفلة وهي تفضله عليه. تمارس معه لعبة العريس والعروس. تتمسح به قطة أليفة وتحمل له حقيبة الجلد اللامعة من المدرسة وإليها؛ بينما يتصدى هو للنسيم كيلا يبعثر شعره الطويل المنسق.

مرارا راودته نفسه أن يمرغ وجه سعدو أمامها في التراب ولكن والده كان ينتصب دائما بعصاه الغليظة، يقطع عليه أحلامه ويتركه في عذاب مقيم. لم يوافقه على أن تترك وصيفة المدرسة بل قال له بلهجة صارمة:

- لم أمت بعد.

كان هذا الأب يلمّح له بيد أنه لم يصدقه. ذهب به الظن أنه يعيش بوجهين في هذه المسألة أقلها صدقا معه. أمه فقـط كان يصدقها حين تقول إن وصيفة له بلحمها وعظمها. ولكنهـا كانت مثله بلا حول ولا قوة، فأبوه المهيمن على البيت يعيش بوجهين أكثرهما صدقا مع المختار، أما وصيفة فتسافر دوما بقلبها عنه وتكون حيث سعدو يكون. بات على يقين من أن أباه لو بقي حيا لنزل عند رغبة وصيفة ولأحنى رأسه للمختار وأعطاها لابنه سعدو.

لو بقي لأعجزه أن يضعها وهي العصفورة الملونة في القفص؛ يطعمها ويسقيها ويشبع عينيه من مفاتنها رغم حزنها الدائم. هذا الحزن يعذبه وكذا كلامها الجارح. «لو لم أكن ابنة عمك لكانت نجوم السماء أقرب مني اليك". يلذ لها أن تجعله دائم الإحساس بأنه اقل شأنا ومنزلة من سعدو الوسيم. تتحدث عنه كفارس هبط من السماء ليحوّل تراب البلدة إلى ذهب في لون شعره الاصفر.

تغار عليه من النسوة وهن يشيعنه بنظـرات ظاهرها البراءة وباطنها اللهفة والشوق، ولكنها مثلهن لا تخجل من القول: «تبارك الذي خلق».

سعدو يقتنص الفرص الحلوة منه كبيرا كما كان صغيرا. لطالما تكوم على نفسه حزينا وهو يراه محط أنظار النسوة في الأزقة والرجال في المضيف. حيثما ذهب كان حذاء سعدو دائما أكثر حضورا منه. لم يسمع من غير أمه كلمة إعجاب واحدة. فتمد له يدًا مداعبة، حتى أبوه كان لا يتذكره إلا عندما تنفض السهرة فيزعق: «وينك يا ولد» فينهض محمر العينين ويتبعه في الأزقة المعتمة حافيا يدغدغ قدميه الشـوك والحصى المدبب.

عذبته تلك السهرات كثيرا؛ يستقطب فيها سعدو من دونه اهتمام الرجال حتى والده. وعندما قبل أخيرا أن يبقيه في البيت، لاحقه سعدو هناك على ألسنة النسوة وبالفرحة النابعة من عيني وصيفـة الواسعتين. لطالما صارع رغبة جارفة بأن يمزق وجهها المليح فلا تعود أجمل بنت في البلدة. إنها آخر حصونه لو تخلى عنه لن ينال من بعدها شيئا وسيأخذ سعدو منه كالعادة كل شيء ...

مذ كان سعدو صغيرا وهو يسلبه السعادة والفرح. لـم يره ولو مرة واحدة يمشـي حافيا أو معفر الوجه بالتراب. شعره الأصفر سنابل قمح يموج على كتفيه، وعيناه وردتان زرقاوان لم يصبهما الرمد. أول مرة رآه ظن أنه ضيف نزل البلدة خطأ ولكن شعره ظل يموج على كتفيه سنابل وظلت عيناه وردتين تشمهما النسوة وابنة عمه عن قرب فيتلمظن بشره ويتنهدن.

أما الرجال فكان لهم طرقهم الخاصة في التعبير عن إعجابهم به في المضيف أمام المختار. يدحرجونه بأيد خشنة ويغزلون له أردية الثناء. تزداد كرش المختار انتفاخا فيسحب أنفاسا عميقة من النارجيلة، ويأخذ ابنه يعجنه بين يديه. يسافر الرجال الى تلـك المرأة التي أخذ عنها ابنها كل هذا الحسن. يتذاكرون كيـف أمطرت السماء زفافها رصاصا ونارا ملونة؛ وكيف بـذرت النسوة في طريقها الزغاريد! المختار قبلهم يعرف أن سعدو لـم يحمل منه غير الاسم، وهذا وحده كان مدعاة لفخره ومبعثا للحسـرة في قلوب الرجال. ظلت عيونهم تسبح خارج البلدة إلى حيث النساء اللاتي ينجبن مثل هذا الصبي. يفرغون شوقهـم ونفاقهم حتى بعدما يتثاءب لزحف النعاس وتنام رموشـه الطويلة على بحر عينيه. حتى أبوه كان ينساه. يدخل أنفه في شعر سعدو الأصفر حتى يزجره المختار ضاحكا «ليس للأكل» يتضاحك الرجال ويدفنون غيظهم باحتساء القهوة، وبإطالـة الليل بالسهر حتى لا يعودوا إلى حيث نساء وجوههن صحاري قاحلة.

لم يتغير سعدو بعدما كبر؛ لقد ظل محط أنظار النسوة في الأزقة والرجال في المضيف، وظل حذاؤه أكثر حضورا منه. أكثر ما يعذبه أن تظل ابنة عمه تتحدث عنه كفارس هبط من السماء ليحول تراب البلدة إلى ذهب في لون شعره الأصفر. لم تتغير بعد الزواج. يلذ لها أن تجعله دائم الاحساس بالغبن وأنه أقل

شأنا ومنزلة من سعدو الوسيم. إنها آخر حصونه لو تخلى عنها لن ينال شيئا وسيأخذ كالعادة منه كل شيء. حسنا، إنها الآن زوجته وان كانت لا تعرف بعد قيمته فسيروضها مع الأيام حتى لا تعود ترى في البلدة رجلا غيره.

خطوة إلى الخلاص

القرية بكل ما فيها من حجارة وبيوت وأشجار تحوّلت إلى ألسنة وآذان تحكي وتسمع الخبر الفريد: (الضبع الذي روّع القرية والقرى المجاورة لأكثر من شهرين، يضـربه سعدو ابن المختار بهراوة ويخلع ذيله بيده).

لو أن المختار بنفسه عملها ما كان لهذا الحدث كل هـذه الضجة وهذا الرنين، أما أن يكون سعدو هو البطل فهذا ما يدعو للعجب حقا، وقد كانوا يحسبون أن كل رصيده قوامـه الفارع ووجهه المليح، وكذلك شعره السائل على كتفيه وظهـره كإحدى العذارى، مما حق للتعمري في حينه أن يغار منه على زوجته ويشكوه لوالده المختار.

القرية تتمطى وتنتفخ حتى تصبح أكبر من حجمها المعتاد، تزهو على ما يجاورها من قرى، فهي امرأة لا تلد غير أبطـال يحولون كوابيسها المرعبة إلى أحلام في لون الورد.

لما تجمـع الرجال في المضيف كان المختار يجلس بينهم

كالطاووس، لا يمل أو يكل من شرح كيف دخل الضبع بوابة المنزل المفتوحة عن عمد؛ وكيف كان هو يرقبه من النافذة العلوية مطفأة النور عن تدبير مسبق، ثم كيف أيقظ سعدو من نومه العميق فهجم على الضبع الكاسر بهراوة وضربه على أم رأسه وقبل أن يتمكن الوحش من الفرار كان سعدو قد اجتث ذيله بيديه. وردد متلذذا بطعم الكلمات وهو يمسك بالهراوة والذيل:

- كما ترون هاهي الهراوة وهاهو الذيل.

ثم استطرد وهو يحتضن ابنه بعينيه:

- بعد إلحاح مني قبل أن يأخذ الهراوة كان مصرا على أن يهاجم الضبع بيديه وحسب.

عرشت نظرات الإعجاب على سعدو حتى ضاقت عنه ثيابه وسرت همهمات «بطل وابن بطل» وتساءل الرجال عن إمكانية عودة الضبع من جديد. وهنا قفز سعدو من مكانه شادا قبضته.

- عندها ساخلع رقبته.

ضحك المختار حتى اهتزت كرشه المدلوقة أمامه على الفراش وتبعه الرجال بضحكات فيها الكثير من التقدير والسرور.

كلهم ضحكوا ما عدا التعمري فقد ظل نهبا لهواجس تدوس بنصالها الثقيلة رأسه وقلبه. «بالرغم من كونك يا تعمري قد رأيت هراوة عليها دماء وكذلك رأيت ذيلا مقطوعا فأنت تعرف هذا الشاب، ليس بمقدوره أن يجابه هذا الضبع ولو تسلح ببندقية سريعة الطلقات وفي غمرة ضوء ساطع، أما أن يتصدى له بهراوة وفي الظلمة المطبقة فيخلع ذيله فهذا ما لا تستطيع هضمه وها أنت ترى أنك وحدك الذي لا تنطلي عليه هذه المهزلة، حتى زوجتك تصدقها وتحكيها بحماس يفوق ما تسمعه الآن في المضيف من المختار وابنه المقدام. لم ينفع قولك لها إن هذه الحكاية ملفقة وإنك لا تصدقها، انطلقت تسردها عليك للمرة العاشرة تتناثر من عينيها نجوم سعادة وحبور. وحين قلت لها: «لا يستطيع مجابهة فأر» غضبت كأنما طعنتها في شرفها. تُهيّج في صدرك ذلك الصراع الذي خضته ضد سعدو لتفوز بقلب «وصيفة» أجمل بنات القرية. كل رصيدك في الحملة تلك أنها ابنة عمك وأنك أولى بها. قلت لها معاتبا: «تغضبين له كأنما هو زوجك» أولتك ظهرها فشعرت بندم فظيع. فكرت أن تسترضيها لولا أنك تعرف بخبرتك استحالة رضاها قبل مرور يومين على الأقل. ما تزال تذكر المرات العديدة التي كانت تأخذ فيها على خاطرها دون قصد منك، نقطة ضعفك أنك تحبها بجنون. يقودك هذا الحب إلى غيرة عمياء دفعتك بعد الزواج إلى محاولة إغلاق نافذة البيت لا بالستائر وحسب؛ بل وبالحجارة أيضا لما رأيت هذا الرقيع يكثر من المرور من تحت

النافذة متعللا بأوهى الأعـذار ولكن وصيفة تصدت لك وغضبت يومها لا ككل يوم، وقالت لك صـراحة: «قبلت أن أسجن معك في بيت لا في زنزانة» قلت لها بذلة ومسكنة: أخشـى عليك من العيون الجارحة. قالت: «عيناك بما فيهما من غيرة تمزقانني» لما فشلت في إغلاق النافذة فكرتَ أكثر من مرة أن تلقن هذا الدعي المغرور درسا في عرض الشارع وتحت النافذة بالذات؛ كي تشهد وصيفة ونساء القرية جميعا أنه لا شيء وأنك كل شيء. كنت متأكدا من أنك تستطيع أن تكنس به شوارع القرية والأزقة وليشـرب أبوه المختار بعدها البحر أو أي مستنقع آخر. أكثر ما يمكن أن يحكم عليك به هو النفي من هذه القرية اللعينة، ليكن، فهذا أسعد يوم في حياتك أن تضم وصيفة إلى جناحك وترحل. لو هي طاوعتك لأصدرت مثل هذا الحكم على نفسك منذ الزواج ولكنها قالت ساخرة: «مجنون» ولما فكرت بصوت مسموع بظمأك إلى دم سعدو قالت متشدقة: "لا تقدر عليه» هذا رأيها قبل حكاية الضبع وجاءت هذه الحكاية لتقلب يقينك بنفسك، وأنت ما أتيت الليلة إلى المضيف إلا لتُسمعَ المختار وابنَه خلاف ما سمعت؛ وها أنت ترى عنجهية غريمك قد زادت، ستقتلك الجمرة التي تضطرم في صدرك إن لم تطفئها".

- أمتأكد أن ليس هذا ذيل كلب ميت؟

قال ذلك مرسلا سهاما مسمومة من عينيه إلى سعدو. لمح صفرة خفيفة تظلل الوجه المليح. سمع همهمات استنكار مـن

الحاضـرين. هو ذاته أدهشه لبرهة أن يفلت منه مثل هذا الكلام، ولكنه وضع سدا منيعا في وجه الندم الزاحف، وظل يرسل من عينيه إلى سعدو السهام.

قال المختار محاولا أن يبدد ذهوله ودهشة الرجال بابتسامة صفراء:

- ماذا حدث لعقلك يا تعمري، ألا تفرق بين ذيل الضبـع وذيل الكلب؟

ثم وهو يغرغر بضحكة استخفاف ومرح.

- انظر إلى ذيلك وأنت تعرف.

انهالت عليه الضحكات مطارق حادة مؤلمة، تراءت لـه وصيفة تجلس بين المختار وابنه تضحك ملء شدقيها على خذلانه.

"سيتناقل الرجال ما حدث الليلة إلى نسائهم وسيُملِّحنَه حتى يصل إلى وصيفة كما يشتهي سعدو ان تسمع عنه» تضطرم في صدره الجمرة من جديد. ينهض حتى يرتكز على ركبتيه في مواجـة المختار، يقول وعيناه تقبضان على نظرة تحد صارخ:

- يا مختار، الكلب من ليس مثلي.

ثم وهو يلوح بقبضته في وجه سعدو.

- أين آثار مقاومة الضبع على ابنك الهمام، أم ترى الضبع يعرف أن ـ المحروس - ابن مختار؟

انفتح فم المختار بلا إرادة، حامت نظراته طائرا مهيض الجناح، استقبله الرجال بذهول مماثل. لم يجرؤ أحد من قبل أن يهين المختار بهذا الشكل ولا بأي شكل، غمغموا استنكارا.

- ماذا جرى لعقلك يا تعمري؟

انتصب التعمري على قدميه متحفزا كالرمح.

- بل أنتم ماذا جرى لعقولكم حتى تصدقوا أن أحدا مهما بلغت قوته يستطيع أن يخلع ذيل ضبع بيديه، أي واحد منكم لا يستطيع، فكيف لهذا الطرير المخنث؟

تصطبغ وجوه الرجال ببوادر تفكير. بدأ كل منهم يجري مقارنة سرية «هل حقا يستطيع؟» يلبسون أقنعة الحياد، يتوقعون من سعدو أن ينهض ويرد هذه الإهانة؛ ولكنه اكتفى برسم ابتسامة باهتة على ثغره لم تلبث أن تفشت في وجهه المصفر.

خيم السكون على الجميع، تشاغل المختار بحشو غليونه بالتبغ. تلتف عيون الرجال على التعمري معجبة، يخرجون وهم يدارون ابتسامات السخرية والشماتة. ظل التعمري حتى آخر رجل منهم ثم خرج يتهادي زهوا في طريقه إلى البيت مطمئنا إلى أنه يستطيع لا أن يغلق النافذة بل ويفتح نوافذ أخرى تطل على الشارع لتدخل منها الشمس ويعبر الهواء.

ساعة الفصــل

لا يذكر التعمري من قبل أنها نظرت إليه معجبة كحالهـا الآن. منذ وضعها في قفص الزواج مرغمة وهي لا تفتأ تخدش رجولته وتنغص عيشه بكلامها اللاذع. لا تخجل من البوح له أن أحلامها كانت ولا تزال تسبح من حول سعدو الوسيم. لعل مبعث إعجابها اليوم أنها رأت وسمعت الرجال الذين أرسلهـم المختار إليه يلتمس منه الحضور بعد أن سبق وأخبره أن المضيف عليه حرام.

"لعلها اقتنعت أخيرا أن زوجها وابن عمها رجـل مناسب يحسب له الرجال في البلدة وكذلك المختار وابنه ألف حساب؛ إن كان المختار قد طردك ذات مرة فما ذلك إلا لأنك لا تحابي ولا تنافق ولا تسبح بحمده كالرجال ليل نهار».

أسكره الخضوع في عينيها وهي تقول:

-هل يعقل أن يرسل كل هؤلاء إليك؟

ضحك ملء شدقيه. احتواها بنظرة زاخرة بالحب.

- ألم تري وتسمعي؟

مصمصت شفتيها عجبا. عذبه أنها تغالط نفسها ولا تقدّره كما يجب. حاول أن يطعنها بنظرة حارقة ولكنها ضاعت في شعاع الحب المتدفق من قلبه شعر أن باستطاعته احتواءها بذراعيه دون أن تظل ساكنة كعادتها دمية من الشمع البارد.

ساعدته في لبس ثيابه والحذاء. ولما كانت تفعل ذلك لأول مرة؛ رقص قلبه طربا وأقسم أنه سيمسح من عينيها الواسعتين فلول الإحساس بالغبن لأنها تزوجته. «لاتدري لم استدعاك المختار الليلة ولكن ستعمل جهدك على ألا تكون ندا لسعدو وحسب؛ بل وتظهر لها تفاهته بشتى السبل... آه يا سعدو الشوكة في حلقي مذ كان رأسي حليقا وأنت تسعى في البلدة بشعر طويل أصفر كديكصاح في البيضة... لن أنسى ما حييت أن حذاءك كان أكثر حضورا مني في الأزقة والسهرات. جعلتني لليال طويلة أتقلب على نار الغيرة والحقد وأنت تتمدد بيني وبين وصيفة فتجعلها تسافر عني بعيدا؛ وحين أدركها تكون جثة بلا روح... ستعرف أنت وأبوك الليلة أن التعمري يصهل جوادا أصيلا حين تموء الرجال كالقطط... لن أحابي أو أنافق... لن أتمسح بكما كلبا أجرب... الليلة ياسعدو ساعة الفصل».

التصقت به تنفض الغبار عن ملابسه. شعر بها تدخل إلى مسامات جلده. حدس أنه لو طوقها بذراعيه فلن يجتاح وجهها التقزز والغضب... أخذ وجهها بين يديه. سافر في حقول عينيها تظلله شمس دافئة حنون. ناداه ثغرها روضة غناء تصدح بطيور من كل زوجين اثنين.. همَّ أن يشمّر ثيابه ويدخل عالمها المدهش غير أنها تضاحكت وهي تدفعه نحو الباب تهيب به أن يلحق بالرجال.

ألقى المختار ومن حوله الرجال واقفين على رجل واحدة بينما استرخى سعدو في الصدر يدعك أسنانه بالسواك. لأول مرة يراه مهملا ولا يستقطب أنظار الرجال. فتح المختار له ذراعيه معانقا.

- جئت... يا مرحبا... يا مرحبا.

ترك له يدا باردة يذيبها بحرارة يديه. حدس أن في الأمر سرا لن يكون في صالحه. أدار الترحاب رأسه... رفعه عاليا بمشط شعره بعدما طال واسترسل. أشار المختار له أن يجلس في الصدر. تدافع الرجال كل يريد أن يصب له القهوة. رفع المختار يده يسكت ثورتهم... التفت إلى سعدو وقال آمرا:

- فلتصب أنت يا سعدو للتعمري القهوة.

ألقى الفتى على أبيه نظرة اندهاش وعجب ثم قام متثاقلا قبل أن يوقفه التعمري ومن ثم يقول للمختار بشك:

- لم تستدعني لهذا حتما؟

ضحك عن أسنان مذهبة يقتل بها ما يعانيه من حرج. مسح على شاربيه يخفي ارتباكه؛ فشرع السبتي يعدد أخطار الضبع الذي يهاجم القطعان ثم تنحنح قائلا:

- رأينا أن نهاجم الضبع في المغارة.

وربت المختار على كتف التعمري مشجعا.

- ليس هناك من هو أكفأ منك بالطبع.

حدّق به يغالب ضحكة ساخرة توشك أن تفلت منه. دار بعينيه على الرجال وحط بهما على سعدو الذي يدعك أسنانه بالسواك. تحسس حلقه عن الشوكة فكانت ما تزال هناك تنخسه حضورا منه في المضيف؛ وكيف ينغص عيشه في البيت تعاوده ولكن على استحياء! يتذكر المرات التي كان حذاء سعدو أكثر ذكرى منه ثم تلك الليلة التي قال له فيها المختار:

- أنت يا تعمري لا يعجبك العجب فلماذا تكلف نفسك عناء الحضور؟

"كانت إشارة قاسية بطردك... ذنبك أنك لا تسبح بحمده ولا تتمسح به كالكلب... وها هو اليوم يعرف قيمتك ساعة الخطر بل يريد أن تحكم على نفسك طائعا بالموت؛ يريدك أن تموت». أفلتت منه ضحكة ساخرة فرضت الصمت والدهشة على المختار والرجال. التفت سعدو إلى أبيه مؤنبا:

- لقد قلت لك رأيي فيه من قبل، ساذج وتافه وجبان.

اقتلعه إعصار مدمر وألقاه على صدر سعدو مباشرة. توغلت أصابعه في شعره الأصفر وزمجر:

- ماذا تقول أيها الرقيع المخنث؟

جذبه السبتي عنه، وقال المختار معاتبا:

- وهل خطئي أني اعتمدت عليك؟

انتصب لاهثا. شرع يديه في وجهه صائحا:

- ولم لا تعتمد على ابنك؟ أم تراه لا يدخل في عداد الرجال؟

همس بصوت مخنوق:

- سعدو!

- أجل سعدو، حبيب أمه وأبيه.

التفت المختار إلى الرجال يطلب منهم تفسيرا لهذه الوقاحة، تضاحكوا عجبا. هز التعمري رأسه وكتفيه استهانة، وقبل أن يخرج استدار إليهم موضحا:

- من يجلس في صدر الوليمة يؤم الناس في الصلاة.

البكاء على جثة الغـد

طاف السبتي في الصباح الباكر على البيوت الطينية الواطئة.

-الحاضـر يعلم الغائب، لا يذهبن أحد منكم إلى المرعى.

تململ التعمري في رقدته. أرخى أذنيه للصوت الغليظ. اعترضته بقايا النوم. سمع.

- أسـرعوا إلى مضيف المختار.

قام نصف قومة. استند على مرفقه. تساءل عما عساه حدث، سمع السبتي يقول:

- وليحضـرن كل منكم كلبه معه.

زم التعمري شفتيه. تساءل: ولماذا الكلاب؟ جاءه الصوت الغليظ، موضحا.

- الليلة عرس كلبة المختار. الحاضر يعلم الغائب.

ضغط على شفته السفلى مرددا «الكلاب» انهالت عليه الحقيقة كتلةً من الصخر الأصم. سقط على الفراش يلهث. تحجرت عيناه على السقف الواطيء. ارتدّت به الذاكرة إلى تلك الليلة الرهيبة.

كان كلبه أول ما عوى تلك الليلة. تبعته بقية الكلاب في جوقة شرسة مزعجة. قفز إلى الباب تحصده زوبعة الشك. سمع ثغاء الغنم وهي تزوم باضطراب. لمح رجلا عند باب الحوش يمتطي حصانا يتحدث بصوت خفيض لمن معه والكلب يحاوره بنباح متصل قنيف. صاح:

- مـن؟

لكز الفارس الحصان واستحث من معه بصوت استطاع أن يسمعه ويعرف صاحبه. سعدو ابن المختار وليس غيره مـن جاء ينتقم بعدما ظفر بوصيفة من دونه؛ وبعدما فضحه أمام الرجال. خرج إلى الأزقة عاري الصدر والرأس. صوته يمزق أحشاء الليل.

- لصوص.

رشحت بعض البيوت رجالها. تحلقوا من حــوله يستوضحون الأمر. قال يلهث:

- إنهم يسـرقون الغنم.

قذفت إليهم النسوة بالعصـي. تنافخوا غضبا وتساءلوا:

- أين رأيتهم يذهبون؟

صـرخ بأعلى صوته:

- تجدونهم في بيت المختار.

حركوا رؤوسهم يبحثون عن عيون بعضهم بعضا. لم تسعفهم بهمة الليل على إظهار الدهشة والفزع. تراخت أيديهم عن العصي. قالوا:

- هل تعي يا تعمري ما تقول؟

أكد لهم أن سعدو هو من كان يدير اللصوص أمام الحوش. استذكروا العداوة المزمنة بين الرجلين. قال بعضهم ساخرا:

- لعله ما كان يقصد الغنم.

زعق وهو يدق صدورهم فردا فردا:

- زوجتي أشرف امرأة في القرية.

شهقت النسوة وأمرن الرجال أن يعودوا فالرجل على ما يبدو لهن قد جن. تفرقوا عنه ودخلوا البيوت. أوصدوا من خلفهم الأبواب، ولكن الكلاب كانت ماتزال تنبح.

صوت السبتي ينادي محذرا من مغبة أن يتخلف أحد منهم. يحاول التعمري عبثا أن يغمض عينيه. نهض توا وفتح الباب. وجد الكلب مقعيا هناك. صفر له. رفع أذنيه ثم نهض إلى الغنم يلمها ويدفعها خارج الحوش.

ألقى الرجال منثورين في الأزقة تحف بهم النساء والكلاب. استهجنوا منه عصيانه أوامر المختار. أورد لهم ما حدث تلك الليلة، رموه بالحقد والحسد. طفق يرجوهم أن يخرجوا إلى المرعى أو أن يتركوا الكلاب في الحظائر إن أصروا على الذهاب.

حركوا أيديهم ضجرا وأولوه ظهورهم. هز رأسه آسفا ومضى بالغنم إلى المرعى ينفخ في الناي بحزن ويتبعه كلبه الفتي. أسرعوا إلى المضيف وكل كلبه معه. تبعتهم النسوة. تراقصت قلوبهم فرحا، سيكون لهم الليلة شرف مصاهرة المختار. كلبته ذائعة الصيت ستتزوج كلبًا من كلابهم. هذه شهامة منه. لم يستورد لها كلبا من فصيلتها كما استوردها.

وقف المختار مزهوا ينقل عينيه بين الكلاب والرجال، عبس

وقال:

أين كلب التعمري؟

سقط في قلوبهم خوف مفاجئ من إمكانية خسـرانهم صفقة يربحها التعمري. قالوا بصوت واحد:

- التعمري يهذي بكلام فارغ. يبدو أنه فقد عقله.

ترنح رأس المختار وتمتم:

- ولكن كلبه صاح يقظ وفتي.

فتر حماسهم. تأكد لهم أن كلبه الشـرس سيتزوج من كلبة المختار. أخبروه ما كان من أمره وأكدوا أنه ذهب إلى المرعى ولن يعود. طافت على وجهه غمامة أسف وغيظ. طاف بعينيه عـلى الكلاب المقعية في الساحة المتربة يعدها... برم شاربه وصفق مؤذنا ببدء الرقص.

أخذت الشمس ترسل عليهم حمما من أتونها المستعر لحظة بلحظة فتمتص منهم كل ذرة من جهد وحماس. استقبلوا الليل وهو يهبط ضيفا خفيف الظل. أمر المختار بأن توقد المصابيح والشموع. نثرت نورا كابيا على الوجوه المتعبة والكلاب المقعية.

جاء السبتي بالكلبة تعوي حرقة ولوعة. انتصبت للتـو آذان

الكلاب. استقامت واقفة تتشمم الهواء. احتضن المختار الكلبة يمسح فروها الناعم. تبادل والسبتي نظرة ذات مغزى غادر بعدها السبتي المضيف على عجل. ربت المختار على ظهر الكلبة وقال مسـرورا:

- الليلة يا عزيزتي عرسك. اختاري ما شئت من هـذه الكلاب.

ألقى بها وسط الباحة، هرت الكلاب وكشـرت عن أنيابها. أحدقت بالكلبة تلحسها متوددة. أقعت واستكانت. زمجرت الكلاب وبدأت عراكا شرسا داميا. ثار الغبار فغطى مصابيح الزيت وأطفأ الشموع. أصيبت النساء بالذعر. وضعت كل منهن ثوبها بين أسنانها وهربن. نادى الرجال على الكلاب يأمرونهـا بالتعقل والحذر. ضاعت أصواتهم وطوتها الزمجرة، استداروا إلى بعضهم بعضا يتلاومون على شراسة الكلاب. انقلب اللوم إلى ضـرب وركل وزعيق. انتبهوا إلى أنات موجعة وغبار يصعد مخلفا جثثا ممزقة دامية. الكلبة وحدها كانت مقعية تحدق فيما حولها ببله. ضحك المختار عاليا. هرع إليها. ألصقها بصدره يمسح فروها الناعم.

- هذه الكلاب ليست من مقامك. سأحضـر لك عريسـا محترما.

تحامل الرجال على ذواتهم يداوون جراحهم ويستنهضون ما تبقى من الكلاب. رأوا النسوة عائدات هرولة يندبن ويلطمن الخدود. صحن وهن ينثرن على رؤوسهن التراب:

- الحظائر خالية.

التفتوا إلى المختار. رأوه مايزال يربت على كلبته ويضحك. يفور من صدورهم الغيظ، يسقطون في وهدة اليأس ينتشلهم منها صوت ناي آخذ بالاقتراب وكلب فتي ما يزال ينبح.

أشياء غـير الـحـــزن

اهتزت البلدة كالغربال في يد القدر. نزف الناس مـن ثقوب المنازل غير مصدقين ما حدث. هذه فاجعة نزلت عليهم من ظلمة الغيب. بالأمس فقط كانت تدفع بصدرها السنابل وتفزع الطيور برأس شامخ. كانت أقوى من مهر أرعن. ليس سهلا على الموت أن يلوي عنقها... لا شك أن الموت نزل البلدة أعمى فقادته عصـاه إلى دار المختار خطأ.

تدفقوا إلى صحن الدار الواسع. خرج عليهم السبتي دامع العينين. تأكد لهم الخبر فراحوا يعفرون رؤوسهم بالتراب. من ذا الذي يقوى منهم على احتمال حزن المختار؟ سيطبع الحـزن على قلوبهم. علمتهم التجربة أن حزنه يكون عظيما على فقده شيئا يخصه. آثار حزنه على قطته الأثيرة ما زالت ظاهرة على جلودهم هالات زرقاء. لم ينس أنها قضت شابة وأنهم السبب.

يذكرها مع من تخيَّر الموت من أبنائهم صغارا؛ ودفنها بجانبهم في مقبرة الكبار، يردد مناقبها ويلعنهم. «لقد قتلوا ذات الشعر الذهبي المائج». تركوا وقتها عباءته الحجازية خالية

وقد كانت لها سـريرا تقضي فيها ساعات السهر، ترقب بعينين ناعستين كيف يشرب سيدها القهوة. ما زال يلعنهم على تركهم الفئران تستبيح البلدة فأثارت في قطته الحبيبة نوازع الهمجية والشر. تبعت مثل قططهم الضالة فأرا مراوغا تسلل من تحت حظيرة الدجاج. ولما لم تكن نابتة مثل تلك القطط في النتانة والوحل؛ انغرست أشواك السياج في فخدها المربرب وعنقها السمين. سال دمها الأحمر على عباءتـه ولفظت أنفاسها الدافئة هناك. شهق ملتاعا وأمطرهم باللعنات.

- لو لم تعطوا تلكم الفئران ملجأ وحماية لما تناسـلت وترعرعت في البلدة.

لم يستطع أحد خلا التعمري القول إن الفئران هاجرت مـن البيوت الخالية؛ إلى حيث القمح تلألأ في بيته، وإنها حين طاردت الفأر كانت تقوم بواجب فطري سلبته منها النعمة والدلال.

الأطفال وحدهم صادقوا على قول التعمري، وتعجبوا من موت قطه في مطاردة فـأر. لطالمـا سمعوا أن القطط بسبع أرواح. والحوادث اليومية تؤكد ما يسمعون. لم يتركوا حجرا واحدا في الأزقة إلا ورموا به القطط الشاردة. تصيبها الحجارة في الرأس والظهر والبطن. لم يروا واحدا منها يسقط، بـل يزيدها رعونة وشراسة وتحديا. هم أيضا مثل هـذه القطط،

يلقون ضـربات موجعة من شيء اسمه الفقر والمرض دون أن يسقطوا ويخلوا الأزقة المتربة.

أما أبناء المختار الرضّع فمثل قطته قد ذاق معظمهم الموت داخل مظلة واقية ينصبها لهم أطباء مهرة. تعودوا أن يعقد حزن المختار على البلدة رايات سوداء تطاردهم ظلالهـا القاتمة ويطارد السبتي في عيونهم الفرح. يجمع كراتهم الصغيرة ويطعمها للنار حتى لا تظل أسنانهم تلمع تحت الشمس ضاحكة فتثير في المختار كوامن الحسـرة والشجن. ظلوا يصنعون كرات أخرى من خرق بالية ولم يدخلوا مدرسة الحزن التي أقامها المختار للكبار ليقضوا فيها جل وقتهم. يرون في الحوادث النازلة بالمختار فرصة، يدخلون أيديهم حتى المرافق في سمن الولائم، أما الكبار فلا يطلقون شهيتهم وعين السبتي تحصي عليهم لقما تعني كثرتها غياب الحزن.

انضمت النساء للرجال. وقفوا جميعا خاشعين بانتظـار المختار لتلوح له عيونهم بالحزن. تخيلوا كيف يعض أصابعه ندما على كلبته. لا يستطيع هذه المرة أن يحملهم السبب. هو الذي قتل كلبته العزيزة برصاصة طائشة في رحلة صيد. خرج عليهم حاملا جثتها. نكسوا رؤوسهم وهـم يرون مبلغ حزنه على رفيق صيده وجليس السمر. قال السبتي يؤبن الكلبة:

- كانت أكثر تفهُّما لمشاعر المختار من صغاركم.

أدركوا أنه إنما يأمرهـــم بأن يخبئوا أسنان الصغار أو يقتلعوها؛ حتى لا تظل تلمع ضاحكة تحت الشمس فتثير لـدى المختار كوامن الحسـرة والشجن. أحنوا رؤوسهم تفهما وساروا من خلف المختار في جنازة مهيبة إلى حيث مقبرة الكبار.

اليوم خمرٌ وغدًا خمر

تكوّم الحلافشة على بعضهم في الملاجيء كالفراخ؛ يلاحقون بعيونهم الطائرات المعادية وهي تمرح في الفضاء بلا رادع، تلقي تباعا بما تحمل فيلقي كل منهم القبض على قلبه كيلا يفر منه. ولم يعد أحد منهم يسأل عما عساه يفعل المختار في مثل هذه الظروف.

أخذت الأرض تعود إلى ثبوتها بعد يوم ظلّت فيه أسـرع من حجر الطاحون. لعقت البيوت جراحها، سالت النساء والرجـال والأطفال والعجائز في الطرقات يعفرون رؤوسهم بالتراب. لـم ينفع قول السبتي لهم بأنهم قد نسوا الواجب فلم يذهبـوا الى مضيف المختار ليطمئنوا عليه. سـرق انتباههم شيخ طاعن بالسن رأوه مقبلا من طرف البلدة يسعى.

قالوا: «بما أن مثل هـذا الشيخ يركض بمثل هذه السـرعة فلا بد أن أمرا عظيما قد حدث». وقف الشيخ وسـط دائـرة ضيقة. ظل لسانه أسير شهيق وزفير. تعلقت الأبصار على يده الممدودة إلى بعيد. صـرخ بـه بعض الفتيان أن يتكلم. زاد حماس

البعض الآخر، أمسكوا بياقته، رفعوه ثم ألقوه على الأرض بعنف. انفجر الذين رأوا المنظر عن قرب بالضحك. انتشرت العدوى بين الحاضـرين حتى عدت الساحة مستنقعا للضحك. تولى العجائز العناية بالشيخ، أنهضوه عن الأرض. نفضوا عن ثيابه التراب. رجوه أن يخبرهم بما انتزع منه الوقار. شـرع يطعن الفتيان بنظرات لاهبة اخفضوا لها رؤوسهم خزيا. قال بفتور وهو يلهث:

- رأيت شيئا غريبا هناك. لا بد أن الطائرات ألقته بالأمس وهي هاربة.

التحمت العيون على يده الممدودة. وضع كل من الحاضـرين ثوبه بين أسنانه وانطلقوا جميعا إلى حيث يشير. لم يبق في الساحة غير الشيخ والسبتي الذي ضاع صوته مذكرا إياهم بالواجب ثم هز رأسه متوعدا وانطلق إلى مضيف المختار.

لم يكن الشباب أول من بلغ الموضع، كان بينهم عجائـز وأطفال. تحلقوا من حول كتلة من الحديد مقفلة. تعذر على أي منهم حملها بمفرده. زعم كل منهم أنه وصل قبل غيره وأنها له. قال حداد البلدة:

- ياجماعة، سأكتفي بالحديد أصنعه لكم مناجل ومحاريث وتأخذون أنتم ما بداخل الصندوق. بداخله ثروة طائلة هي لكم

فقط أعطوني الحديد.

اعترض الطحان:

- منذ أمد طويل وأنا أنوي تغيير حجري الرحى إلى حديد وهاهي الفرصة قد جاءت... هذا الصندوق ينفعني.

كثر اللغط تشابكوا بالأيدي والأرجل. وصل السبتي وهم على هذي الحال. صـرخ فيهم:

- أفسحوا الطريق للمختار وتشاجروا.

لعلع صهيل عال متصل عرفوا فيه حصان المختار الأدهم، تسمروا في أماكنهم، ظل المختار يرسل إليهم نظرات مشبعة بالازدراء. ترجّل عن الحصان. أمسك السبتي باللجام وعيناه تنضحان شماتة. بصق المختار عليهم. انحنى على كتلة الحديد لمسها لمسا خفيفا. استقام هازّا رأسه هزات متوعدة. قال:

- أيها الأغبياء أعلى بضعة أرطال من الحديد تتشاجرون؟!

ثم التفت إلى الحداد آمرًا.

- اصنع منه هاونا ضخما يفتن كل زائر لمضيفي.

نظرَ الحداد إليهم بأسف. شملهم المختار بإشارة من يده لما همهموا.

- ما بالكم؟ ألا تحبون شرب القهوة؟ ألا تودون أن يذكرنا أهالي القرى المجاورة.

ثم خص حفنة من الشباب.

- هيا احملوا هذا واتبعوني.

امتطى حصانه وسار به خببا يرقص. انحنى الشباب وما كادوا يرفعونها عن الأرض حتى دوى انفجار هائل تناثرت على إثره أجسادهم شرائح. لوى المختار عنان حصانه يستطلع الأمـر قال للسبتي الذي يتبعه كظله:

- يظهر أنها حيلة من العدو.

زمجر السبتي وهو يعانق الركاب:

- بل هي مؤامرة دنيئة من هؤلاء لاغتيالك.

حدق به المختار غير مصدق فغمغم بصوت كالفحيح:

- صدقني.

يغلي دم المختار غيظا. يبصق على الأشلاء. يهجم السبتي على يديه ورجليه يلثمها ويسفح الدموع؛ ثم ربت على عنق الحصان وانطلق يطوف شوارع البلدة يأمر الأهالي بالإسـراع إلى المضيف ليهنئوا المختار على نجاته من هذا الاعتداء الغاشم على حياتـه الغالية.

رحـلـة اليأس

خيّم الصمت على وجوه الحاضـرين. لم يعد يُسمع خلا المختار بصوته الهادر والذباب بطنينه الرتيب. ساءل كل منهـم نفسه: متى يعرج المختار على ذكر ما أتوه من أجله؛ القحط وهذا العطش الممسك بخناق الأرض والماشية. تسـربت البحة إلى حنجرة المختار. توقع بعضهم أنه سيكف عن حديثه حول فضائل اليد اليمنى على اليسـرى. راهن بعضهم بالسـر أنه لن يثنيه شيء مهما عظم عن مواصلة الثرثرة والكلام الفارغ. استذكروا حديثه المنصـرم عن فوائد الظل للبشر لا سيما السائرين منهم في الصحراء.

حاصـرته يومها موجات من السعال والعطاس احمرت لها عينـاه وانحبست أنفاسه. ظنوا أنه سيعفيهم من السماع فيطلق سـراحهم كيما يواصلوا الركض خلف الرغيف. خاب ظنهم. حوقل ولعن الشيطان مرارا ثم مسح الرذاذ المتساقط على لحيته وواصـل الحديث عن فوائد الظل بعزم أشد.

سيحطمون رؤوس أولئك النسوة اللاتي ألحن عليهم

بالذهاب إلى مضيف المختار قائلات إن في يده الحل. أما التعمري فقد أفهمهم مرارا أن ليس لدى هذا غير لسان يبذر به أطنانا من قشور فارغة للب لا يؤكل. قال بعضهن:

- ربما يشير عليكم بالذهاب إلى الماء المتدفق من بطن الجبل تستدرجونه إلى الأرض العطشى.

وقلن أيضا:

- ربما ضـرب أول ضـربة معول.

ولم يستبعدن أن يصلي ويرفع وجهه ويديه إلى السمـاء لا ينهض قبل أن ينزل المطر. يئسوا من إقناعهن. مشـوا إلى الزاوية فسـرن من ورائهم بحذر حتى رأينهم يدخلون فحبلـن بالرجاء.

سكت المختار فجأة. شـرع يمسح العرق على جبينه ولحيته. تثاءب الصمت ونام في الأفواه. صال الذباب على الرؤوس وجال. غدا وحده سيد الموقف. تساءلوا سـرا: متى يعرج على ذكـر القحط؟ مايزال الذباب يمرح في المكان يذبح طنينه الصمت. نامت العيون على فمه. متى تراه ينطق بالحل؟ انتهز أحدهم فرصة الصمت فنظف أنفه بصوت مرتفع. استدارت الرؤوس إلى مصدر الصوت. تململ كل منهم في جلسته. شـرعوا

يطاردون الذباب بلا حرج. تنحنح. استلقى الصمت عليهم من جديد. قال وهو يحرك يديه بزهو وفرح:

- رأيتكم وأنتم تطردون الذباب.

انهال عليهم الخجل. أردف:

- أتدرون ماذا لاحظت؟

قبل أن يرتد طرف أي منهم إليه سارع إلى القول فرحا مزهوا:

- كلكم استعملتم أياديكم اليسرى في طرد الذباب. أتدرون لماذا؟ لأن الذباب نجس واليد اليسرى نجسة كذلك.

ألقى كل منهم نظرة سرية متوجسة إلى يده قبل أن يواريها تحت إبطه أو بين فخذيه. ألقى على الرجل الذي نظف أنفه نظرة اختلط فيها التأنيب بالارتياح.

- والآن أحدثكم عن آداب تنظيف الأنف.

أرخوا آذانهم بلا حماس. هرع إليها الذباب يملؤها طنينا مزعجا، تخدرت رؤوسهم وأثقلها النعاس. غاب عنهم حديثه والطنين. اشتعلت آخر فتيلة من صبر النساء اللاتي ينتظرن

خروج الرجال من الزاوية يتقدمهم المختار حاملا راية الحل. اقتربن بحذر. جُوبِهن بصمت مطبق، اقتربن أكثر. وصلتهن أصوات غطيط وخوار. زحفن إلى النوافذ يسترقن السمع والنظر. ألفين الرجال نائمين وكذا المختار.

يتفجر من صدورهن الغضب قنابل موقوتة. يندفعن إلى الداخل هائجات... طار الذباب مذعورا عن أفواه الرجال. هب الرجال مذعورين. أحرق الشرر المتطاير من عيونهن بقايا النوم في العيون. تحيروا أين يخبئون وجوههم خجلا من المختار ومنهن. تلصصوا نحوه. ألفوه ما يزال يرتع في نوم عميق. تنهدوا ارتياحا. ثم أسلم كل منهم يده إلى زوجه وتسابقوا إلى بطن الجبل بعدما أغلقوا الزاوية على المختار والذباب.

جلد الأفعى

كادوا ينسون حكاية المغارة والسيف، لولا أن ذكرهم بها سعدو وهو على ظهر جواده الأدهم.

- لا بد أنكم سمعتم بحكاية السيف!

تطلعوا إلى بعضهم بعضا. يخيل إليهم أنهم سمعوا بهذه الحكاية من قبل، ولكنها في أذهانهم كالحلم. «كان السيف بحوزة أحد أجدادهم الشجعان. لم يهزم وهو حامله قط. حين مات حتف أنفه اختفى السيف غضبا، وقيل إنه دفن نفسه في المغارة حزنا على صاحبه؛ وقيل إنه توارى خزيا من انعدام الرجال».

هللوا ورصعوا جبينه بحبات العيون. امتص إعجابهم حتى آخر قطرة، ثم أخبرهم أنه قتل الذئب الذي اعتاد أن يسطو على القطعان. اندفعوا نحوه. حملوه على أكتافهم مع الحصان وشرعوا يغنون ويرقصون. رفع كلتا يديه فسكتوا.

- ولكني لم أخبركم بعد أن هناك الضبع الذي خلعت ذيله كان يقاسم الذئب الغنائم!

استطرد وهو يشق أرتال الذهول:

- وشره أنكى. فهو قادر على التخفي والاحتفاء بين شقوق الأرض الرخوة.

ارتفعت اقدامهم بلا إرادة. ضحك من خوفهم، وصاح واثقا:

- ولكني سأتربص به حتى أقتله.

هللوا استحسانا. شدوه على أكتافهم. هتفوا بحياته الغالية. رفع كلتا يديه فسكتوا، قال:

- وحدي القادر على قتل الضبع.

لم يشكوا أن السيف قد مسح عن وجهه الخزي بظهور مثل هذا البطل. انطلقوا إلى المغارة. رأوا على بابها التعمري جالسا وبجانبه كلبه الفتي الشرس. أكثر ما يدهشهم هذه الرفقة الدائمة بين كلب قوي وبين رجل هزيل قوته في ساقيه عند الجري. أخبروه شامتين بحكاية السيف والذئب. أشاح بوجهه امتعاضا

وراح يداعب الكلب. انحنى الشباب أمام المغارة باحترام. تقدم الشيوخ برهبة لذيذة يحملون المشاعل.

اليوم تحقق حلمهم الذي استمر ألف عام. غدا دخـول المغارة أمرا ممكنا. يجوسون في ظلمة باردة تنحني لها المشاعل برهبة. أسـرعهم أبطأ من سلحفاة، تنصب عيونهم على التعمري. وحده من دخل المغارة مع الشيوخ. يبعدهم هزاله عن حسن الظن به. يرون من بعيد جسما يلمع. تموت خطواتهم تماما. يطلق التعمري صفيرا منغما. ينقض الكلب على موضع السيف يعود به بين فكيه. يتبع صاحبه إلى الخارج. يتبعونه. يهـز التعمري السيف بقوة. تدب فيهم الحماسة. يتخاطفونه منه. ثم يقدمونه لسعدو الذي كان مقعيا على صخرة بعيدة.

امتطى صهوة جواده وعبر بوابة البلدة كالسهم واعدا أنه سيخلصهم من الضبع. عاد في المساء رافع الهامة والسيف على كتفه مشـرع. تحلقوا من حوله ليسمعوا الخبر العظيم. قال:

- لم أعثر على الضبع لذلك لم أقتله.

ولما أخبروه أنهم يرتعدون خوفا، اشتمَّ من شكاتهم إدانة له. غضب وأنزل السيف. علقه على بوابة البلدة.

- ليقتله أي منكم إذن.

تركهم ودخل الدار. طوقتهم الحيرة والعجز. ساقوا أغناما وأبقارا ورجوه أن يتقبلها هدية متواضعة مع السيف. بعد جهد جهيد قبل ثم ركب الجواد ومرق من البوابة كالسهم قائلا:

- ستزول مخاوفكم عما قريب، وستلعب القطعان في المراعي.

ودّعوه بعيون حبلى بالرجاء، ولكنه عاد معلنا أن الضبع مراوغ. استحلب غضبهم ثم علق السيف على البوابه ومرق إلى الدار غاضبا. صاح به صوت قوي:

- انتظر.

تلفت الى الوراء وتلفتت الجموع المحتشدة. رأوا التعمري مقبلا لأول مرة يرونه بغير الكلب. يتقدم من البوابه يتناول السيف. يقترب من سعدو. يقف قبالته تماما. يرفع السيف عاليا. يهوي به على ركبته فيكسره.

- لسنا بحاجة لهذا السيف بالذات، واعلموا أن الضبع مات منذ زمن. قتلته أنا كما قتل كلبي الذئب.

قهقهوا سخرية به. أطلق صفيرا منغما. أقبل الكلب من بعيد يسحب جثة الضبع. تفرقوا ذعرا. أهاب بهم أن يرجعوا. عادوا

بخطى مترددة. رفع الضبع عاليا وطاف به عليهم. انداح مـن صدورهم الخوف. تحركت أقدامهم ببطء كأنما يتعلمون المشي، ثم انطلقوا عدوا وتخاطفوا جثة الضبع وشـرعوا يرقصون.

تنبهوا أخيرا إلى سعدو والكلب يدور من حوله مزمجرا. اندفعوا نحوه سيلا عارما. حاول الهرب. ألقوا القبض عليه وساقوه إلى مؤخرة الحصان، ربطوه ولوحوا بجثة الضبع فانطلق مذعورا يجر فارسه على الحصى والشوك. تبعوه ركضا إلى المغارة وعندها أدركوا من الذي لفق حكاية السيف ومن دفنه في المغارة وأين كان سعدو يقطع الوقت حين ينطلق من البوابة كالسهم.

القسم الثاني

جـمـجـوم

للأمل أيضًا بقيــة

كان وجه أمي السعيد يغطي خط التقاء السماء بالأرض عند رؤوس الجبال. جعلت أطوّح بالحقيبة في الهواء صانعا منها دوائر بلا حصـر وصوت الأستاذ يختلط في رأسي برصاص كان يلعلع في الجبل أمس. هو مثل أمي لم أره يضحـك أو يبتسم منذ زمن. حدثنا على وقعِ زغردة الرصاص حكاية ذلك الحمار الذي شمت بصاحبه لأنه ينوء تحت كيس من الملح بينما هو يتبختر بحمله الخفيف من الإسفنج، ثم ما لبث أن ندم حين غامت السماء فجأة وأمطرت فذاب الملح بينما ثقل حمله بفعل الماء. كان لا يكف عن الابتسام. ثم ضحك وقال:

- هل فهمتم؟

أسمع أمي تقول دائما كلما ألحّت عليها ذكرى أبي الذي قتل غدرا في الجبل قبل سنين: «حملي ثقيل والحمّال غايـب". قلت والأستاذ يحكي بلا انقطاع: "ربما تحمل أمي كيسا مـن الملح لا أراه». وحين انتهى أدركت أي نوع من الأحمال كانت تعني. لا شك أنها الآن بين النسوة في صحن الدار ترفو لـي قميصا أو

تنقي العدس وتعلف الدجاج. تنتظر وصولي بلهفة لسماع نتيجة ما حدثتها بالأمس عن معركة الجبل حيث قتل أبي غدرا بوشاية من المختار. سأحدثها عن النصر الذي حققه الرجال وأخبرها أن التعمري بخير وأن المختار يرتجف من الخوف لكثرة ما قتل من الرجال ممن كانوا يشربون عنده القهوة ويأكلون المناسف ومن ثم يبصقون في عيون الناس.

سأخبرها أن أبي في قبره الآن يضحك. ستفرح كثيرا وتحصي على أصابعها عدد من لاقى حتفه من الجنود مقبلا أم مدبرا. كانت تقول دائما: «أبوك لم يهرب قط، أصابه الرصاص الغادر في ظهره بينما كان يصلي». بالأمس فقط رفرف السرور في عينيها وتساءلت باندهاش محبب:

- من أين جاء هؤلاء الرجال؟

ثم استدركت بزهو:

- حقا كما يقول التعمري دائما: جمجوم الأب لن يموت.

ضحكت طويلا حتى رأيت ضرسها المكسورة في فكها العلوي ثم سكتت فجأة وتساءلت بقلق:

- لم أر التعمري منذ يومين!

توجهت بعينيها إلى النسوة من حولها تسأل:

- هل منكن من رأت التعمري أمس أو اليوم؟

طقطقن بشفاههن نفيا. نظرت أمي إلي. نكستُ رأسي وتشاغلتُ بعلف الدجاج. وحدي من يعرف أين هو الآن. لقد قال لي قبل بضعة أيام:

- أبوك يزورني كثيرا في المنام. يحمل تراب قبره على كتفيه وينثره في عيني. إنه يشكو من التعب ومن تأخر الثأر له.

ثم همس وعيناه تقبضان على نظرة تحد صارخ:

- قريبا سيرتاح. لا بد أن أجعله يرتاح.

تساءلت بانزعاج.

- هل ستقتل المختار؟

أخذني بين ذراعيه وضحك.

- أكثر من ذلك، أكثر.

قلت راجيا:

- اتركه لي حتى أكبر.

ربت على كتفي وقال:

- هو لك.

ثم وهو يضغط على أسنانه وفي عينيه نظرة تهديد ووعيد:

- سأجعله يموت ألف مرة في اليوم.

غيابه المفاجئ وما حدث في الجبل لا بد ما كان يقصد براحة أبي وموت المختار الذي يقتله الرعب بعدما بلغه انتصار الرجال. تنبهت إلى صوت أمي تسأل بإلحاح:

- ألم تره؟

- المختار؟

بصقت وزمجرت:

- قُطِع وقُطِعَت سيرته، أسأل عن عمك التعمري.

قلت وأنا أهرب بعيني بعيدا كيلا تفضحني خواطري:

- لا.

تمتمت بخوف:

- لم يبق لنا بعد المرحوم من يرعى حالنا غيره.

قالت الحاجة لطيفة وهي تطقطق بحبات مسبحتها الطويلة:

- بقدر ما يحبكما التعمري يكرهكما المختار.

أطلقت أمي ضحكة ساخرة وقالت:

- إن أحَبَّ أو كرِه مثل هذه.

وأشارت إلى نعلها وعادت تعبث بحبات العدس بشرود تام ثم رفعت رأسها وقد غام وجهها فجأة وتمتمت بحزن:

- أخشى أن يكون قد حدث له مكروه.

بسطت لي ذراعيها. ارتميتُ على صدرها غير قادر على ضبط مشاعري. «هل أخبرها بما قاله لي قبل أن يختفي». شرعت تمسح على شعري بيد حانية. وقالت بصوت عميق عمق بئر:

- احكِ لي ما حدث مرة أخرى... وبالتفصيل.

جعلت تنقل عينيها بين النسوة بزهو، حتى إذا انتهيت ضحكت طويلا وصاحت:

- والله جاء يومك يا مختار الكلب.

نظرتُ إلى وجهها. ألفيته مسرحا لمشاعر شتى. أدركت أنها تذكرت أبي والتعمري. فكرت بوسيلة أخرجها بها عن حزنها وصمتها. لم أجد غير حكاية الحمار الشامت النادم.

"حملي ثقيل والحمّال غايب" ضمتني إلى صدرها وأمطرتني بعدة قُبَل. لاحظت ابتسامتها آخذةً بالانتشار بين طيات وجهها بينما تترنم بالقبل. حوقلت الحاجة لطيفة وفركت أم حسن شعري قائلة:

- الله يجازي شيطانك، كلامك مثل السكر.

توقفت الحاجة لطيفة عن الطقطقة بالمسبحة وتساءلت مستغربة:

- الملح ذاب؟ كيف؟

ضربتها أمي على كتفها وضحكت حتى بانت ضرسها

المكسورة في فكها العلوي. ثم قالت وفي عينيها تلك النظرة العميقة كلما ذكرتني بمقتل أبي:

- ذاب الملح يا حاجة، وحياتك ذاب، والّا هو إنت فكرك إن اللي بيحمل حمل ثقيل بيظل طول عمره حامله وتعبان واللي بحمل حمل خفيف بيظل مصهين ومبسوط؟ لا يا حاجة ذاب الملح وحياتك ذاب.

رفعت الحاجة لطيفة حاجبيها دهشة وعادت تطقطق بالمسبحة بينما عادت أمي تمسح لي شعري بزهو وتضحك.

جمجوم يأكل الخبز طـريا

كل الأولاد وقفوا لدى دخول الأستاذ غرفة الصف ما عدا جمجوم. رأسه حقل تتراكض فيه أعداد هائلة من النمل وصـراخ أخيه الصغير يجلد أذنيه بسياطٍ لاهبة مؤلمة «لو أعطيته البيضة» يتنبه على صوت الأستاذ الهادر:

- أنت أيها الوقح انهض.

وعلى البيضة المسلوقة يصوب الأستاذ نحوه عينين جادتين، تتوغل العينان فيه.

- دائما تتلكأ في النهوض.

يمسك الأستاذ بربطة عنقه يلقيها على كتفيه بالتناوب. يتفقد الوجوه المترقبة ثم يأمر الجميع بالجلوس؛ ويشيرإلى أحد التلاميذ أن يقرأ... النمل يقتحم مساحات أخرى من جمجوم. ينهض بفتور ويده داخل الحقيبة تقبض على قطعة خبز يابسة.

- افتحوا على درس «نصائح».

صـراخ أخيه مـا يزال ممسكا بالسوط. تضغط يده على قطعة الخبز والبيضة. "لو أعطيتُه البيضة مـا بكى ولما ضـربته أمي ليكف عن البكاء. أستطيع مثل كل يوم أن أبلل الخبز بالماء وأنزوي في ركن من الساحة وآكله مع الزعتر الذي تجود به الطريق من البيت الى المدرسة».

جاءه صوت تلميذ يلعلع في الصف يوجه كلامه للأستاذ:

- لا تأكل الخبز الساخن فيؤذي معدتك.

تنشنج أصابع جمجوم على قطعة الخبز. أطرافهـا المدببة تنخسه. تغوص فيه حتى العظم... السياج الذي يحيط بأرض شهوان في قريتنا له أيضا أطـــــراف مدببة تغوص في يدي وأنا أتفرج مع صبيان القرية على السيارات الفارهة التـي يصحب شهوان فيها أبناءه ليقضوا وقتا ممتعا أيام الجمـع والآحاد. أبناؤه يمرحون على بساط من الخضـرة ساحرة على مرأى من صبيان القرية الذين يقفون مثلي خارج السياج ينتظـــرون إشاره من الأيدي البيضاء الناعمة، كي يدخلوا فيكتمل النصاب للعبة كرة القدم. يلعبون بكرة حقيقية كبيرة منفوخة لا بدائرة من القماش المهتريء تكنس بها الأرجل العارية طرقات القريـة المتربة.

يقول طالبٌ آخر بصوتٍ يأتي من آخر الصف:

- لا تضع النقود في فمك.

أبناء شهوان أيديهم وجيوبهم ملأى بالنقود، يملأون برنينها الفضاء وهم يطاردون الكرة أو وهم يلعبون بها الطـرة والنقش مع صبيان القرية الذين يسـرقون علف الدجاج يبيعونه ليلعبوا. لو أن أمي تعطيني قرشا واحدا كل يوم، لا كل أسبوع، لا كل شهر، لدخلت في هذه اللعبة فلربما ربحت وعندهـا سأشتري لدجاجاتنا علفا وأترك البيض الذي تبيعه أمي لهذه الغاية فلا يعود أخي للصـراخ؛ وكذلك أضمن لنفسي بيضة أصنع منها شطيرة شهية شبيهة بتلك الشطائر التي يأتي بها الخادم لابناء شهوان يتصاعد منها بخار ساخن شهي الرائحة؛ يقضمونها على مهل وهم يتابعون اللعب لاهين بينما اللعاب في فمي يغرق سمكة قرش كبيرة.

أصابع جمجوم تتسمر على البيضة داخل الحقيبة. قشرتها الملساء تبعث في نفسه البهجة والحسـرة معا. يسترق إليها النظر. لونها الأبيض الناصع يشبه إلى حد ما العملة الفضية في أيدي أبناء شهوان وهم يلعبون بها، لو كسـرتها لصنعت منها شطيرة لذيذة.

يحاول أن يفتح قطعة الخبز تستعصي عليه، يثنيها فتنكسـر. صـراخ أخيه يقتحم رأسه من جديد. النمل يتراكض في رأسـه مذعورا.

- يا ولد يا جمجوم لماذا تقف كالأبله؟

ينتبه على زعيق الأستاذ. يجد نفسه واقفا إحدى يديه على معدته والأخرى قابضة على قطعة الخبز والبيضة. يندفع الأستاذ نحوه مزمجرا:

- حين ينهض الأولاد تجلس وحين يجلسون تنهض ها؟

يرفع كلتا يديه يتقي بهما هجمة الأستاذ. يقول بصوت مشروخ:

- أريد أن أسأل إن كان الخبز الساخن يؤذي المعدة حقا!

يضرب الأستاذ كفا بكف، يلتفت إلى التلاميذ حانقا:

- أرايتم؟ كان يرعى بينما نحن نحرث.

ثبت جمجوم عينيه في عيني الأستاذ وعلى ربطة عنقه وعلى ياقته المنشاة.

- أبناء شهوان يأكلون الخبز والشطائر ساخنة ومع هذا...

هوى الأستاذ على صدغه بلطمة أودعها كل ما احتقنه من صبر عليه وصاح:

- ليس في الدرس كله شهوان أو أبناء شهوان. اجلس.

لم يهرب النمل من رأس جمجوم بفعل اللطمة؛ ولم يضع يده على وجهه كما لم يتذكر يد الأستاذ إلا أمام باب البيت حين مـد أخوه الصغير يده إليه فوضع فيها البيضة وطفق يبحث عن الإبريق ليبلل قطعة الخبز بالماء.

جمجوم يقول: لا

اقتحم الأستاذ غرفة الإدارة وصاح ملوّحا بكراسة في يده:

- هذي وقاحة، هذه قلة أدب، هذا انحراف.

رفع المدير رأسه الاشيب على مهل تسبقه عيناه. أقنعه وجه الأستاذ المربد أن الأمر من الخطورة بحيث يجيز له الدخول على هذه الصورة والصـراخ بهذا الشكل. تطوع الأستاذ بالتفسير حين دفع اليه الكراسة قائلا بصوت عال لم يسمح المدير بمثله من قبل:

- تفضل وانظر بنفسك ما كتب الولد... جمجوم.

تناولها المدير بإهمال، امتطت عيناه ظهر سلحفاة هرمة يسير بها على السطور. نار هادئة بدأت تضطرم في هشيم وجهه. يتسلل السـرور إلى الأستاذ. يدمدم:

- ليس تلميذا سويا. أطواره غريبة. نظراته كالرصاص.

كلامه يضجرني، يحرجني.

هب المدير من مكانه فجأة، شهق واضعا يده على فمه.

- يا إلهي! هذه منتهى الوقاحة، بل منتهى الخطورة.

ثم زمجر:

- لن يظل هذا الولد دقيقة واحدة في هذه المدرسة.

أرسل المدير في طلب جمجوم كما أرسل إلى الأســـــتاذ فيضَا من الشك والاتهام فقلّب هذا يديه حيرة وقال مدافعا عن نفسه:

- أنا سـردت عليهم الحكاية كما جاءت في كتاب المطالعـة؛ وكما وصلت إلينا منذ مئات السنين... الأسد له كل شيء وليس للحيوانات شيء، كلها تتنازل عن نصيبها له.

وتناول الكراسة من يد المدير بلطف، دفن وجهه فيها وقال:

- ولم أتطرق إلى ذكر الحمار والجمل والثور، هذه مـن عنديات الولد جمجوم.

ضـرب المدير كفا بكف ونفخ مغتاظا:

- الحمار يتحدى الأسد؟ غير معقول؟

طأطأ الأستاذ رأسه وتشاغل بإحكام ربطة عنقه تاركا وجهه نهبا لسياط لاذعة من عيني المدير. دخل جمجوم غرفـه الإدارة رافع الرأس، ثابت الخطى. وقف غير بعيد عن الطاولة الفخمة صاح به المدير:

- اخفض بصـرك وضع يديك إلى جانبك.

حرك جمجوم يده اليمنى حتى صنع بها دائرة كبيرة وقال مركزا عينيه في عيني المدير:

- لماذا؟

ثبت نظارته بإصبعه الوسطى. جلس. تراجـع بمسند الكرسي إلى الوراء.

- لم تصنع شيئا؟ هه؟ لم تصنع شيئا؟

اتكأ جمجوم على سطح المنضدة فصاح المدير أن يرفعها فيما جذبه الأستاذ بقسوة إلى الوراء نقل بصـره بين الاثنين وتساءل بحدة:

- ماذا فعلت؟

لوح المدير بالكراسة وظل يهز رأسه متوعدا.

- ما كتبته من تخريف جناية كبرى، وأيضا تنظر إلي بوقاحة.

- لا أستطيع أن أخبئ عيني.

ألقى المدير على الأستاذ نظرة خاطفة تلقاها بمهابة ووجل.

- يظهر أنك لا تستطيع أن تخبئ أي شيء فيك، حتى ما في رأسك من جَربٍ لا تستطيع أن تخبئه.

ثم أمره أن يقف على رجل واحدة ووجهه إلى الجدار وأرسل في طلب ولي أمره.

جاء التعمري ملوحا بعصا. تركه المدير واقفا وقال بلهجة قاطعة:

- لا مكان لهذا الولد في مدرستي. فأنت لم تحسن تربيته.

ضـرب بعصاه الأرض.

- جمجوم من أكثر الأبناء تربية وأحسنهم خلقا.

ضحك ساخرا وقال يطحن الكلمات.

- لو أنه كما تقول ما حرّف في قصة الأسد، استمع لجمجوم الشهم.

تناول الكراسة وشـرع يقرأ بصوت مائع ورأسه يتطوح: «رفض الحمار أن يتنازل عن حصته للأسد وقال له رافـع الرأس: أنت لم تخرج مثلنا للصيد. وعندما هدده الأسد بالقتل نهق نهيقا عاليا: أفضل الموت على أن أتنازل عن حصتي. وحين حاول الجمل والثور إقناع الحمار بالعدول عن رأيه، رفض وأغلظ لهما القول».

ضـرب المدير على سطح الطاولة بقبضته قائلا:

- هل سمعت يا حضـرة المحترم. الحمار يتحدى الأسد.

طوح بيديه ناحية جمجوم ووجهه بركان ثائر.

- لماذا الحمار بالذات؟

ثم أشار بأصبع الاتهام إلى التعمري وقال مهددا:

- لن يظل دقيقة واحدة في هذه المدرسة أو تعدني أن تربيه تربية سليمة.

اخفض جمجوم ساقه واستدار إلى التعمري ملتصقا به. أمسك التعمري بأذنه ضغط عليها مؤنبا.

- غيرت أيضا فيما سـردته عليك من تصحيح لهذه الحكاية القديمة. من أين جئت بهذه الحيوانات آكلة العشب؟ لقـد مسخت الحكاية فهذه لا تأكل اللحم.

ضحك جمجوم وهو ينظر إلى كل من المدير والأستاذ.

- الأسد هو الذي لم يعد يأكل اللحم يا عمي.

ووضع يده على العصا. نظر إليه التعمري طويلا ثم ابتسم وعندها واصل جمجوم الضحك.

في العراء يولد الصغار

منذ خرج التعمري وأمي على هذا الحال. وجهها تمثال من الشمع يقوم على قاعدة من عروق نافرة. احترمتُ صمتها وحزنها ولم أعد أذكِّرها أن الأمر لا يستحق أن تحرق أعصابها من أجله. عيناها ترسلان إلي أرتالا من العتب الصامت. يترنح فيهما ذاك السؤال الذي رشقتني به مرارا من قبل:

- ألم تجد غير ابن المختار تسبه وتطعنه؟!

يتكدس الندم في مسامات جلدي... ماذا كان يحدث لو تركته ينتزع الكوفية عن رأسي والعقال؟ هل كانت الأرض ستكف فجأة عن الدوران؟ لو تركتُه يفعل لوفّرت على أمي وجبة أخرى من العذاب. ولمَا تحمل التعمري ذاك الرجل الطيب مشقة إقناع المختار بأن يعدل عن قراره بطردي من البلدة... ذهب وهو من علمني ألا أعتذر ما دمت على صواب! اعترف جهرا بأن الحق في جانبي. قال ليقتل في الندم:

- حسنا فعلت بالحفاظ على كوفية والدك.

صوبت إليه أمي نظرة عتب فاستدرك ليقتل من عينيها طيور الحزن.

- ذلك الفتى من عائلة مجرمة غير أن الطعن سابق للأوان.

كيف تخلى عن مبادئه وذهب ليعتذر؟ بل لماذا تركته يذهب؟ إنني بائس، بائس. ستكف الأرض عن الدوران حقا لو أن المختار رده خائبا. وحتى لو استجاب فلن يكف عن السخرية أن كيف جاءه التعمري أخيرا حاني الرأس يعتذر. لقد حمّلت ذلك الرجل الطيب أضعاف ما تطيق نفسه المرهفة وهو الذي يصنع لي دائما من ذراعيه وصدره قارب نجاة في بحر الغربة واليتم.

- اسمع يا جمجوم. أبوك لم يكن مثله أحد. شعاره _ رحمه الله_ المنية ولا الدنية.

ثم يطلق زفرة حزن ويغمغم:

- أنت تعرف كيف مات أبوك؟

- أجل أعرف. أمي أخبرتني وكذلك أنت. أنا أحبك.

ويلصق رأسي بصدره العريض.

- وأنا أيضا. المرحوم كان لي أكثر من أخ. لا زلت حتى الآن

أذهب إليه في قبره أستشيره كلما استعصت علي الأمور.

لماذا تركته يذهب؟ أنا مجرم، مجرم...لم أدرك أني تخطيت حاجز الصمت إلا بعد أن أرسلَت أمي إلي نظرة دامعة وقالت مؤنبة:

- وماذا يفيد الآن اعترافك بالذنب؟

صحت وأنا أدك بقدمي الأرض:

- ولكنه أراد أن يغتصب كوفية أبي وعقاله!

مصمصت شفتيها وتفجر صدرها بالزفرات:

- وما نفع الفرس إن ذهب الفارس!

حدقت بها أبحث عن الصدق في أغوارها فما عثرت عليه. هي من ظلت تحتفظ بأشياء أبي دهرا، وهي التي وضعت الكوفية على رأسي وغرزت في حزامي الخنجر وقالت:

- اذهب إلى البلدة يا ابن أبيك.

هل حقا لم تفرح حين طعنت ابن من وشى بأبي وأذاقه الموت غدرا؟ أشاحت بوجهها تخفي عينيها اللتين اعتدتُ أن أشرف منهما على حدائق الصدق. لم تنس أن المختار هو السبب

في ترملها وهي بعد في عز الشباب. كم استيقَظَت في الليل، ترفع يديها وتدعو عليه بخراب البيت... كانت دموعها تزاحمها كلما قالت لي شيئا عن أبي. ولكن التعمري أخبرني عنه بلا دموع.

- طوى كثير من الرجال رؤوسهم وظلوا كالأنعام يعيشون ليأكلوا من فتات موائد المختار ويتفرجوا معه على مناجل الغزاة تحصد رقاب الناس. لم يكن أبوك مثلهم أقسم أن لن تعرف عيناه الكرى ولا مضاجع النساء حتى تظل الأشجار تحبل بالزيتون وتلد نهرا من زيت يضيء ولو لم تمسسه نار. فانضم إليه رجال من خارج البلدة. ظل المختار يطلق ضحكات ظاهرها وباطنها المكيدة والحقد. كره أبوك البلدة وناسها. رأى أن الجبل الذي تسكنه الأفاعي والوحوش أرحم من بلدة يسبّح رجالها بحمد مختار شرس ويخبئون رؤوسهم في أحضان النساء... ها أنت ترى كم كان أبوك على حق. الوحيد الذي لم يخسر شيئا هو ذاك الذي كان يطلق ضحكات ظاهرها السخرية وباطنها المكيدة والحقد... المختار من وشى بأبيك فحاصروه في الجبل ولهذا أنت يتيم...

«المختار... آخ...آخ...» نفثت أمي زفرة هبت طلائعها على وجهي ساخنة. استنكرتُ حزنها فصحت:

- لست نادما... أتمنى لو مزق الخنجر قلبه.

ضـربت كفا بكف.

- مجنون وعنيد.

لمحت ابتسامة تتردد على زاوية فمها بحياء. أدركت أنها مثلي تتمنى لو احترق قلب المختار ليعرف كيف يكون موت عزيز.

عاد التعمري يرزح تحت أطنان من الخزي. خلت أنه لن يقوى على رفع رأسه أبدا... تكوّم عند الباب ينبش الأرض بعود جاف. غمغم بصوت مهزوز النبرة.

- قبل أن تبقيا في البلدة.

أشرق وجه أمي بالأمل. حدجتُها بنظرة عاتبة فزمت شفتيها ولاذت بالصمت. سدد التعمري إلي نظرة فاحصة ولما استطعت أخيرا أن أحدق به رأيت وجهه حقل من قمح اجتاحه جيش من الجراد. قالت عيناه إن المختار لم يتنازل عن السـرج إلا ليأخـذ الحصان. إنني أعرفه. صمته أبلغ من كل كلام. هرش ذقنه وجعل يبرم شاربيه باضطراب ثم أخفاهما بيد ترتجف... حين يواري رجل مثله شاربيه فمعنى ذلك أنـه ضيّع نفسه...هممت أن أرتمي على قدميه نادما أسفح اخفاهما الدموع.

تصدى لي بعينين غابت منهما الوداعة واللطف.

- يريدك أن تخبئ عينيك ولسانك ويديك، وألا تجلس في غير مجالس النساء.

رجته أمي أن يسكت. راغ منها واستطرد محتدًّا:

- يريدك أن تخبئ عينيك ولسانك ويديك، وألا تجلس في...

تحول وجه أمي إلى مستنقع آسن بالآمال. هبّ واقفا فجأة خلت رأسه الشامخ قد نفذ من السقف؛ زعق بصوت كالرعد:

- سل أباك في قبره إن كان يرضى لك بهذه المذلة وهذا الهوان.

اندفعت نحوه أمرغ وجهي بيده، مسح على رأسي وقال بصوت دافق بالحنان:

- إن طاوعتني ارحل. اترك هذه البلدة الشريرة إلى أن ينبت على جلدك الريش.

فرك أنفي وقال وهو يغالب الدمع:

- أنت تفهمني.

انحدرت دمعتان من عينيه الوادعتين. كانت أول مرة أراه يبكي، فبكيت.

الـعـــــراء

حملني صوت الأستاذ من البيت على مخالب طير جارح. انتبهت إلى أنني ما زلت داخل غرفة الصف. التلاميذ يرمقونني بسخرية وفضول، والأستاذ محتقن الوجه بالغضب. توقعت أن يناديني ليهوي بعصاه الغليظة علي. عشت لحظات من الرعـب قتَلتْ سعادتي بالزحف إلى عنق أمي لآخذ منها المفتاح وأرى ما بداخل الصندوق. عَقَد الأستاذ ذراعيه أمام صدره وقال بهدوء مصطنع:

- قل لي: ماذا كانت تضع المرأة العجوز لصغارها في القدر؟

لو تركني فقط حتى آخذ المفتاح وأرى ما بداخل الصندوق.

صـرخ:

- ماذا كانت تضع لهم في القدر.

رأسي ساحة لمعركة حاسمة تتناثر فيها الأشياء بلا ملامـح.

المفتاح وحده يغمز لي غمزا مغريا، به سأفتح الصندوق وأغترف ما بداخله من ذهب ونقود. هكذا قال لي عمي حين ذهبت إليه كي يشتري لي بدلة وحذاء، وأمي لم تكذّبه بل قالت وهي توشـك أن تبكي:

- كل ما في الصندوق لك بعدما تكبر.

بكيت على صدرها بحرقة. مسَحت على شعري وبكت.

جلجل صوت الأستاذ:

- ألا تعرف أيضا لم كان الصغار يبكون؟

لساني قصبة مفرغة يتلبد فيها العجز. درت على التلاميذ من حولي ببصـر كسير. كلهم مثلي لم يتجاوزوا العاشرة، ولكني الوحيد من مات أبوه غدرا وعمه خصم لدود. وأمه تغل يدها إلى عنقها لا تتخلى عن شيء من الصندوق فيشتري حلوى وفاكهة ويرتدي مثلهم زيا جديدا كل يوم. رشقني الأستاذ بنظـرة غيظ وطاف بعينيه على الأصابع المرفوعة. أشار إلى واحدة منها فقال صاحبها على عجل:

- كانت العجوز تضع لصغارها حصى في القدر لتسكت جوعهم حتى يناموا.

سدد إلي الأستاذ وكذلك الطلبة نظرات شامتة. غرقتُ حتى أذني في المقعد. تتناثر في رأسي الأشياء. لم أعد أســـــــــمع غير همهمات من حولي ضعيفة، آخذة بالموت... ماذا تصنع امي الآن؟ لا بد أنها تضيف إلى الصندوق ثروة أخرى مع هذا تدفعني إلى المدرسة بيد فارغة وملابس رثة... لا أتساءل: أنىّ لها ذلك!

لست كالأطفال في شيء. إنها تعرف ذلك ثم لا ينالني منها غير الدموع والقبلات والنصائح عن فضيلة الصبر وضـرر الحلوى على أسنان الصغار. قلت لها مرارا إن هذا الكلام لا يشبع جوعي ولا يستر عريي؛ وكل ما أريده أن تتخلى عن جزء يسير مـن الصندوق. كانت تضحك وتبكي في آن وتمسح على شعري بيد راجفة وتغمغم:

- كل ما في الصندوق لك، صبرا إلى أن تكبر.

إلى متى سأظل ظامئا والماء ينساب من بين يدي؟ إنها لم تفتحه ولو مرة واحدة أمامي؛ ولكني أكاد ألمس النقود فيه نائمة يغمرها الدفء. لم أكن أنظر إليه من قبل إلا أنه كتلة من الحديد الصدئ إلى أن فتح عمي عيني عليه... قد ضقت ذرعا بعزف أمي طويلا على وتر القناعة والصبر. قلت لها ربما في لحظة طيش لأغيظها:

- لو أنني في كنف عمي، ما لحقني هذا الهوان.

سالت دموعها على خديها غزيرة مدرارة. لم تثنني دموعها ولا قولها الأخير فيه عن الذهاب اليه. كان يسترخي بين أولاده وزوجته. تغاضيت عن نظرة الحقد في عينيه. طالبته ببدلة وحذاء. ضحك وضحكت زوجته وتصايح الأولاد طربا. قال من بين أسنانه:

- لتشتري لك أمك.

ثم وهو يحتضن أصغر أولاده يقبّله.

- مافي الصندوق يكسيك ذهبا خالصا.

لم أنس لأمي أنها رمتني في هذا الموقف الحرج. بسطت لي ذراعيها كي أفرِّغ فيهما دموعي. نفرت منها وزعقت:

- لماذا تركتني أذهب وما في الصندوق يكسيني ذهبا؟!

أخفت وجهها بيديها ولعنت عمي. رفعت رأسها فجأة. قالت وعيناها تقبضان على نظرة تحد لم أرها من قبل:

- ولم لا؟ إنني أخبئه إلى حين تكبر.

رمقت الصندوق في الزاوية. إنه كبير ومصفح بالحديد لا أستطيع تحطيمه؛ غير أن هذا المفتاح المتدلي من عنقها لا بد أن يفتحه لأرى عوالم سحرية يعجز عن حصـرها الخيال.

تنبّهتُ إلى لكزة بجانبي. تلفَّتُّ. كان الأستاذ يحدق بي مندهشا، قال محنقا:

- أين تكون وأنا اشرح؟

ربما نظرت إليه ببله فتركني ومضـى يحرك يديه بمعنـى لا فائدة ترجى مني.

لم يعد الصغار يصدقون أن لدى أمي صندوقا متخمـا بالقروش. باتوا يتفرّسون في ثيابي ويدي الفارغة من الحلوى والفاكهة والكعك. لن أظل في نظرهم كذابا. سأفتح الصندوق أو أحطمه.

صفق الأستاذ بيديه. نقلني صوته من البيت إلى حجـرة الصف وهو يقول بفرح:

- وبذلك أكل الأولاد حتى شبعوا.

طرحني المساء في البيت جثة هامدة. ضخّم الليل ما ألاقيه

في النهار من عذابات. أدار النوم لي ظهره. تدحرج الصندوق في رأسي يصلصل بالنقـود. نظـرت إلى أمي ألفيتها مغمضة العينين تتنفس بانتظام. المفتاح يتدلى من عنقها بخيط. يغمز لي غمزا مغريا. لن يثنيني شيء عن الاستيلاء عليه. نهضت من فوري هرعت إلى سكين حادة اعتادت أمي أن تذبح بها ديكا أو دجاجة في المواسم والأعياد، قطعت بها الخيط. خيّل إلي أن أمي فتحت عينيها وتململت. لم يكن يهمني شيء. لن أظل في نظر الصغار كذابا. سأملأ جيبي غدا مثلهم بالنقود لن أقف بعـد اليوم بعيدا عن الباعة أضع أصابعي في فمي بالتناوب. سأشتري بدلة وحذاء أذهب بها إلى عمي أتبختر. سيغتم وتغتم زوجته ولن يضحك أولاده سخرية مني. سأقول له إذا لزم إنه ليس عمي.

أصدر المفتاح في القفل صـريرا عذبا أنســاني ململة أمي في الفراش. انتزعتهُ بلهوجة. طالعتني ملابس قديمة لرجل منثورة على الوجه. قمباز وعباءة وكوفية وعقال. ألقيتها جانبا. غصْتُ بيدي إلى أسفل وبوادر يأس تزحف إلي. اصطدمت يدي بقطع معدنية صغيرة. صلصلت كزغرودة عرس. أطبقتُ أصابعي على حفنة منها. نثرتها على نور السـراج. كانت بضع رصاصات بعضها فارغ وبعضها تخثر عليه ما يشبه الدم. شهقت بفزع. انتبهتُ إلى أمي جالسة تغطي وجهها بيديها وتجهش بالبكاء.

قالت:

- تلك هي الرصاصات التي قتلت والدك وعليها دمه.

انهال علي الخزي. ركضَت الدموع في مسالـك عيني. كفكفت أمي دموعها فجأة وتجلت في عينيها نظرة تحد كتلك التي رأيتها يوم خذلني عمي. قالت متوعدة:

- هذا ما كنت أخبئه لك إلى حين تكبر.

زحفت على ركبتي. حاولت أن أفرغ دموعي على صدرها. رفعت إصبعها محذرة:

- إياك والبكاء.

لثمت الرصاصات، أعدتها والثياب إلى الصندوق. أغلقته. وضعت المفتاح في جيبي وظللت أفكر،كيف ومتى سأغسل ما على الرصاصات من دم؟

صهيل الغضـب

حين وصلت المضيف كان المختار يبرم شاربيه والرجال من حوله يضحكون. أظنه كان يحكي لهم كيف جاءه التعمري راجيا أن يعفو عني فعفا. آثار الشماتة ما تزال مزروعة على وجهـه المفلطح كالرغيف. إنني اعرفه حق المعرفة، فما فعله بي وبأمي وبأبي لا ينسى. لما وقعت عيناه علي عبس. حدَجني الرجـال بغيظ، يرمونني بالوقاحة لمقدمي وأنا الذي طعنت ابنه بخنجـر أبي حتى أشرف على الهلاك.

وقفت أمامه مباشرة. نظر إلي بصمت غاضب. لعله يظن أني ما جئت إلا معتذرا على فعلتي؛ وشاكرا سماحه لي بالبقاء في البلدة. عزمت أن أحرمه من مواصلة الشعور بالغلبة والفوز. قلت بلا تردد:

- لن أبقى في بلدة أنت مختارها.

جحظت عيناه. حاول أن يضحك. تفجر صدره بالسعال. احمرّ وجهه رغيفا خرج لتوه من الطابون. وثب السبتي علي. أمسك

بياقتي. هزني بعنف. ربت المختار على كتفه مباركا وهمهم من بين أسنانه.

- أبن الكلب كلب.

تكدست الدموع في حلقي، بَنيتُ في وجهها سدا منيعا.

- بل الكلب من وشى بأبي ويطارد ابنه الصغير.

ضغط على نواجذه وشـرع يديه كالرمح.

- لولا مخافة القول أن مختار الحلافشة قتل صبيا لقتلتك.

امتدت نحوي عشرات الأذرع تهزني. انتزعت جسدي إلى الخارج فلاحقني صوته.

- إن جاء الليل ورأيتك في البلدة قتلتك.

لما أخبرت أمي بما حدث، ارتعشت ذقنها وغطت وجهها بيديها ثم قامت تحزم المتاع وترتب الصندوق. ربت التعمري على كتفي مشجعا. «وجهه مرآة تعكس دائما الصواب والخطأ». قال وهو يضمني إلى صدره العريض:

- تذكر أنك لن تهاجر للأبد فأنا هنا وكذلك أبوك.

حين خرجنا كانت الشمس تواري وجهها بين سحب نبتت فجأة. انتثر الفحم على البلدة في عز الظهر. ليس هـذا الكسوف الذي تعلمته في المدرسة، هي الشمس تخرج لسانهـا للمختار.. والليل يستلقي في الطرقات وأنا ما أزال في البلدة.

كانت المدينة حين وصلناها ترتدي قميص نومها ويفوح من أردانها عطر وخمر. هذه إذن المدينة التي ينطلق منها شهوان بأبنائه أيام الجمع والآحاد في رتل من السيارات الفارهة... لكم تمنيت أن أرى منبع ذاك الثراء الفاحش؛ يرسل على أهل البلدة رائحة تذكرهم بالموت وهم بعد أحياء.

التصقت أمي بي. دست ذراعها تحت إبطي تمسح بابتسامتها عن قلبي الحزن... أعرف أنها كانت تفضل أن تسمل عينيها على أن تترك البلدة حيث بيتنا الصغير، وقبر أبي الذي تزوره صبـاح مساء؛ تسقيه وتنثر عليه شقائق النعمان. داهمني شعور قاتل بالغربة. زحف إلي الندم سافِرِ الوجه. أنا من سبب لها هذا العذاب خلت أني سأبكي اللحظة. انتصب أبي أمامي بقامة مديدة ورأس شامخ. نزع عن رأسه الكوفية والعقال. وضعهما على رأسي وقال محذرا: «إياك أن تتخلى عنهما لأحد». هربت مني الدموع لصا فاجأه الضوء. انهالت مئات الطلقات على أبي فسقط أمامي على الرصيف سابحا في بركة دم. ارتعشت أمي. تفرست بي فكانت حالتي تجيز لها البكاء. قلت:

- أمي، هل تذكرت أبي؟

مسحت دموعها وتمخطت بكم ثوبها.

-ومتى كنت أنساه؟!

افترشت وجهها غيوم من الحزن كثيفة. سألتها مبررا طعني ابن المختار:

- كم عدد الرصاصات التي اخترقته؟

اهتزت ذقنها ومصمصت شفتيها. قالت وفي عينيها يتفجر الثأر:

- كان جسده محروثا بالرصاص.

- يقول التعمري إنه أحصى في جسده تسعا وتسعين رصاصة.

مدّت يدها تصلح وضع الكوفية على رأسي وقالت بثبات:

- يكفي أن تعرف أن الرصاص كان بغزارة غيظ الحاقدين عليه.

نظرتُ إليها، كانت غيوم الحزن آخذةً عن وجهها بالانقشاع.

لم يغب عني أنها ترجو ألا يطول غيابنا لتزور قبر أبي؛ تسقيه ماء وتنثر عليه شقائق النعمان.

شددت قامتي... أمسَكتْ أمي بالصندوق على رأسها تهدهده وانطلَقت أمامي مهرا أرعن فصار همي أن ألحق بها لأسألها مـن أين جاءتها هذه القوة وهذا العنفوان.

الضـربـة الأولـى

حامت أصوات الصبية من حولي عصافير مغردة. هرعت إلى النافذة المطلة على الساحة الواسعة. رأيتهم يتقاذفون كرة من المطاط صغيرة، تقفز بين أرجلهم وعلى رؤوسهم فراشة ملونة. لكم أحسد هؤلاء الصبية، أمهاتهم حتما يتركن لهم حرية الخروج واللعب... أمي بحرصها علي وخوفها عقبة كأداء. أطلقت زفرة حبيسة وجعلت أزوم وأتمسّح بالباب. ألقت علي نظرة متوجسة وهي ترفو لي قميصا، قالت محذرة:

- إلى أين؟

ولعلها لاحظت جفافَ لهجتها فأوضَحت بمودة:

- تعرف أن بقاءك في البيت يغنينا عن المشاكل.

نظرت إليها طويلا. رأيت العذاب يحتل مساحات شاسعة من وجهها ويبني له حصونا دائمة في عينيها الغائرتين. جثـوت أمامها. دفنت وجهي بين يديها وأنا أصارع البكاء.

- أما زلت غير مصدقة أن ابن المختار هو الذي تحرش بي؟

انحنت تطوف بأنفاسها الدافئة على وجهي وشعري. قالت بحزن:

- أعرف. ولكن إلى أين نذهب لو صادفتنا مشاكل جديدة هذه المرة؟ إلى أين نذهب؟

أهالت على لهجتها أطنانا من الرهبة والخوف. بتُّ أخشى المدرسة وموعدها يتسكّع على الأبواب. أخـذت وجهي بين يديها، تفرَّست بي طويلا وقالت باسمة:

- أتريد أن تخرج؟

ألقيت إلى عينيها نظرة مباشرة. كانت الدموع هناك ما زالت تتجمع بحذر. تخيلتها كيف كانت في البلدة تدفعني إلى الخروج لتطلقَ سـراح الدموع، حتى إذا عدت أشرق وجهها حقـلا أخضـر طلعت عليه الشمس بعد أمطار غزيرة.

قبّلتني بشوق كأنها لن تراني بعد اللحظة، ودفعتني إلى الباب قائلة:

- هيا اخرج يا بني والعب.

وطاردني صوتها عبر الباب:

- انتبه لنفسك.

اقتربت من الساحة. منظر الأولاد عن قرب يثير في نفسي أشجانا بلا حصـر. «هل ترى أولاد القرية التي تركتها مرغمـا يحنون إلي؟» كفَّت الحركة لدى دخولي الساحة ومات الضجيج. وقفوا هنيهة ينظرون إلي ثم مشوا نحوي بخطى رتيبة؛ وشـرعوا يحومون حولي وفي عيونهم دهشة وفضول. أشار الذي يحمل الكرة لهم بيده فكفوا عن الطواف. وقف أمامي مباشرة. أخذ يدق بيده على راسي. مط شفتيه قائلا:

- أنت غريب عن هذا الحي!

قلت بلطف محاولا امتصاص نظرته الشرسه:

- نحن هنا منذ شهر.

كشر عن أسنان صفراء.

- أنتم؟!

- أجل أنا وأمي.

التفت إلى من حوله وانفجر ضاحكا.

- أسمعتم؟ هو وأمه.

ماج الصبية بالضحك. أشار لهم أن يسكتوا فسكتوا. قال وهو يقلب وجهي بين يديه:

- أمك عوراء. هل صدق حدسي؟

زام قلبي احتجاجا على تذرعي بالصبر. ربتُّ عليه أُطيّب خاطره. أغلقت أذني في وجه وقاحة حامل الكرة وسخرية الصبية.

قال بلهجة الأمر:

- ما اسمك؟

عادت إلي بعض من الثقة الهاربة. قلت وأنا أتفرس فيهم فردا، فردا:

- اسمي جمجوم.

ضرب كفا بكف وضحك. صخب الأولاد بضحكات نزلت على رأسي مطارق حادة. قلت محذرا:

- أنا هنا لأني طعنت ابن مختار الحلافشة بالخنجر.

رفع حاجبيه عاليا، وأعرب عن السخرية بصفرة طويلة منغمة. حذا الأولاد حذوه. امتلأ رأسي بالصفير صرخت:

- أقسم أني طعنته.

أمسك بأذني وقال باحتقار:

-أنت!

هجمَ الأولاد علي يلكزونني ويجذبون شعري وثيابي. دافعتهم عني برفق. رأيتهم يتركونني فجأة ويتهامسون «البطل... البطل...» لمحت صبيا يخترق الساحة بخيلاء ظاهرة يتأبط كرة كبيرة. إنني أعرف هذا الصبي حق المعرفة وهو يعرفني بالتأكيد. لطالما جاء مع والده شهوان أيام الجمع والآحاد إلى مزارعهم الشاسعة في القرية فيترك بعض الصبية يدفعون بـه سيارته الصغيرة إلى قمة تل مرتفع لينحدر بها وحده رافعا ساقيه في الهواء. إنه يعرفني وسيخلصني من هؤلاء الصبية فسطوته عليهم ظاهرة. مات ضجيجهم تماما وتراجعوا بعيدا، أما حامل الكرة فقد تجمع على نفسه وبدأ ينخر بوجل.

وقف ابن شهوان غير بعيد منهم يسلقهم بعينين جارحتين. ثم صاح فجأة:

- ما بكم تتصايحون؟

مدوا أصابعهم نحوي يستعدونه علي. ألقى علي نظـرة فاحصة من فوق أنفه الشامخ. زوى ما بين حاجبيه ولم يبد عليه أنه رآني مجرد رؤية من قبل. أشار إلي بسبابته فيما كان يلاعب الكرة على إصبع واحدة. ظللت واقفا فهجم علي حاملُ الكـرة الصغيرة ودفعني دفعة أوصلتني إليه. نفخ على وجهي وقال من زاوية فمه الأحمر.

- ما اسمك أيها الجدْي؟

دفعني صوته ووقاحته إلى الصمت دفعا. طال سكوتي فتطوع أكثر الواقفين بالقول:

- جمجوم... اسمه جمجوم.

رفع إصبعه فسكتوا عن الهذر. قال دون أن يحوّل عينيه الجارحتين عني:

- سألته هو، وأريد أن أسمع منه الجواب. هه؛ ما اسمك؟

حاول لساني أن يتمرد علي. ضغطت عليه ضغطة موجعة. رأيت وجهه يربدُ فجأة. قذفني بالكرة وزعق:

- ما اسمك يا كلب؟

هرع الصبية يلاحقون الكرة الهاربة. وضعوها بين يديه باحترام ووجل. تقدّم منه حامل الكرة الصغيرة وقال كأنما يطرح نكتة:

- يقول أنه طعن ابن مختار الحلافشة بالخنجر.

دارت عيناه دورة كاملة، تسربت الحمرة من وجهه المورّد وباتت ذقنه ترتعش... لا بد أنه سمع بالحادثة في القرية... لابد... وما طرأ عليه من تغيّر يثبت صدق فراستي.

قال باستهانة العارف:

- حدث هذا في قرية صغيرة تافهة.

شهق الأولاد وراحت عيونهم تتسلّقُني باندهاش وعجب.

قال بلهجة ذهبت منها السطوة:

- لم تجبني عن سؤالي.

هممت أن أغرس أظافري في وجهه المكتنز؛ وأنتزع منه أنفه الشامخ. انتصبت أمي بثوبها الأسود أمامي وفي عينيها الدموع.

«لا أريد مشاكل» تطامن رأسي بلا إرادة، غمغمت بذلة:

- جمجوم.

ربت على صدغي بغلظة وتنهد بارتياح فاسحا الطريق للدماء كي تعود إلى وجهه المكتنز.

استدار إلى الصبية وانتهرهم بقسوة:

- حسنا فلنبدأ التمرين.

تراصوا في طابور واحد وكل يداه إلى جانبيه بـلا حراك. ظللت واقفا تحوم من حولي الدهشة. أمسك بشعري ودفعني قائلا:

- خذوا معكم هذا الجرو.

ظللت أركض بفعل الدفعة حتى وقفت بجانب حامل الكرة في نهاية الطابور. سوّلت لي نفسي أن أعود إليه وأغرس أظافري في وجهه المورد وأنتزع منه أنفه الشامخ. عادت أمي تنتصب بيني وبينه محذّرة... «أين سنذهب إذا ما صادفتنا مشاكل جديدة أسدلت يدي إلى جانبي ووقفت كالواقفين بلا حراك.

شـرع ينطنط بالكرة على ركبتيه ورأسه حتى استقرت أخيرا

تحت حذائه اللامع. أشار بإصبعه إلى الواقف أول الصف، فهرع هذا يتحسس وجهه. لطمه على صدغه الأول فأدار له الثاني وعاد إلى مكانه فرحًا أنه تخلص من واجب يومي. نظرت إلى حامل الكرة الصغيرة فكان كبقية الواقفين يتحسس وجهه ويرتجف. لكزته بكوعي.

- وهل يضربكم دائما؟

ضغط على شفته السفلى محذرا وهمس:

-دائما، اسكت.

ثم رأيته يهرول حتى وقف أمام ابن شهوان فصفعه صفعة خلتها أعنف بكثير مما أوقعه ببقية الصبية. أشفقت عليه وتبخر الكره الذي زرعه في صدري وبقية الصبية حال دخلت الساحة. امتدت إصبعه نحوي كذيل عقرب صفراء. تحولتُ إلى مرجل يغلي بالغضب. حاوَلت أمي أن تنتصب أمامي محذّرة. نحَّيتها بغلظة وظللت مكاني رافع الرأس. هدر صوته:

- تعال يا كلب.

مد الصبية أعناقهم نحوي يتقافز من عيونهم عجب واندهاش. كتموا أنفاسهم وهم يرونه يركل الكرة بعنف ويتقدم مني يشخر وينخر. وقف أمامي مباشرة. شرع يدق على صدري

قائلا:

- ابن مختار الحلافشة شيء وابن شهوان شيء آخر.

انفجَرَت الأصوات حاملة بشائر التصديق. تدافع الصبية من حولي والتصقوا بي. أحببتهم أكثر. اغتصبتُ ابتسامةً طوّحتُ بها إلى حامل الكرة فرد علي بمثلها مشجعا... صـرخ فيهم ابـن شهوان ان يصطفوا من جديد:

- بعد أن ننتهي منه سنكرر التمرين.

ورفع يده ليهوي بها علي فامتدت يدي إلى وجهه في لطمة قاسية، وجعلت أمطره بالصفعات؛ فظل يتراجع مذعورا حتى تعثر وسقط. هجم عليه الصبية يركلونه ويجرونه من شعـره الأصفر. مزق أحدهم الكرة الكبيرة وألبسها رأسه فتـرك الساحة زاحفا على أربع، أحدق الصبية بي يمطرونني بنظـرات الإعجاب. عانقني حامل الكرة بشوق وقال مفاخرا:

- إذن فقد طعنت ابن المختار!

صفق الصبية زهوا وحملوني على أكتافهم وطافوا بي الساحة الواسعة؛ ثم توجهوا بي إلى البيت فرأيت وجه أمي هناك حقـلا أخضـر طلعت عليه الشمس بعد أمطار غزيرة.

الدليـــــــــل

ألقى المدير على الصبي نظرة باردة تحمل إليه التهديـد والوعيد.

- إذن فأنت هو جمجوم!

أحنى رأسه بمعنى نعم ثم رفعها مزهوا. نقلت حركته ردا حاسما على هذا الاستقبال الساخن. وارى المدير اضطرابه في ورقة النقل وهمهم:

- ومنقول تأديبا!

حاصـرته عيون الأساتذة بتوجس. تساءل أحدهم محتدا:

- لماذا؟

رد بلهجة الواثق:

- نقلني الصدق وقول الحق.

زام الأساتذة من حول المدير الذي نهض فجأة وأطبق على عنقه صائحا:

- نحن هنا لا نرحم. أيّ حركة منك مشبوهة ستنقلك على الفـور.

أشار له بيده أن يذهب. هبط الى ساحة تعج بالطلبة. لم يتصد له أي منهم كما توقع بالعداء. رآهم يحومون طيـورا ظامئة من حول صنبور جاف. تطوع بعضهم شارحا. فهم أن هذه حالهم منذ أكثر من شهر. لم يروا الماء إلا في نافورة ترفع رأسها متحدية وتمد لسانها شامتة من خلف سور فخم لقصـر كبير. يزيد منظرها في حلوقهم الظمأ. لا يسمعون من المدير والأساتذة غير كلمة واحدة «اصبروا». نشيشُ الماء الصاعد والهابط من النافورة يعزف على آلة سحرية تزيد عذابهم. حتى العصافير هاجرت إلى حيث الماء السائب في جذور العشب الأخضـر في القصـر.

يعلمون أن هذا درس من أصحاب القصور المجـاورة ليجبروهم على الهجرة كما هاجرت العصافير. هؤلاء من قطعوا الماء؛ يطلقونه على الحدائق والبرك. من البداية احتج هؤلاء على إقامة المدرسة. حجتهم أن الأصوات تجتاح نوافذهم وإن تكن مغلقة. تهز المخادع العامرة هزا عنيفا فيطير النوم من عيون ظلت ساهرة حتى الفجر. ظلوا يصبون اللعنات على روح

ذلك الرجل الذي تنكر في آخر لحظة في حياتهِ لسهرات ما بعد منتصف الليل فأوصى بالأرض والمال لتزرع هذه الشوكة في أجفانهم. أما الورثـة فقد وضعوا على قبره صخورا نارية، فقد كان من الممكن أن تظل موائدهم أكثر اخضـرارا من الحشائش النابتة على ضفاف البرك لو لم يتسـرب عقله من غربال الصحوة الكاذبة.

تسلق جمجوم الجدار الفاصل بين المدرسة والقصـر. ضج الطلبة بالهتاف. اقتحمت رأس المدير صيحات الطلبة. تمدد في مقعده مزهوا وقال من شدقه:

- كنت أعلم أنهم سيدركون خطأهم ويطلقون سـراح الماء.

مدَّ عنقه من النافذة. أربدَ وجهه كأنما لطمته يد على غفلة. هبَّ واقفا وصاح:

- إنه ذلك الولد الشقي.

تكوم الأساتذة على النافذة. رأوا «جمجوم» جالسا على السور وفي يده خرطوم يتدفق ماء في الأفواه الظامئة. ضـرب المدير النافذة بقبضة يده وزعق.

- فليُنقل هذا الشقي فورا، وها هو الدليل.

البرغـــــوث

حالما انتهى الأستاذ من رسم خارطة المعركة على اللوح نفض يديه من أثر الجير قائلا بحماس وهو يشير إلى نقطة فيها:

- هنا أطبق الجيشان على العدو كالكماشة.

رفع جمجوم إصبعه. رماه الأستاذ بنظرة ثاقبة يود بها لو يستل لسانه فلا يعود يلقي به عليه أسئلة محرجة تذرو كلامه في الهواء. لقد خبِره طويلا. هذا الصبي الذي لم يخرج بعد من البيضة لا يعجبه العجب ويقول دائما كلاما أكبر منه. لطالما ألقى الشك في نفوس التلاميذ فيدفعهم إلى هز رؤوسهم ينفضون ما علق بها من شرح.

- نعم

خرجت من فيه رصاصة محكمة التسديد. لم تُخرس النبرة الحازمة «جمجوم» كما توقع؛ بل نهض يقول موزعا نظرات شكه على العيون الجاحظة.

- هذه الجيوش كانت دائما تطبق على الأعداء كماشة، فما سـر ما نراه من هزيمتها على الدوام؟

جحظت عيناه بفزع، وقال يستجير بالصبية:

- هل قلت إنها هزمت؟

استخلص من الرؤوس الصغيرة هزات النفي. ألقى على جمجوم نظرة شامتة واستدار إلى اللوح الأسود يكمل الشرح بلا حماس.

جاءه صوت جمجوم ملحاحا رافضا:

- المصيبة أنك لم تقل.

رماه بنظرة خارقة فتابع بإصـرار:

- النصـر طعمه حلو ونحن أفواهنا يملؤها الحنظل.

أشار له الأستاذ أن يجلس وشـرع يضيف خطوطا متعرجة بلا نظام. سمع همهمات من خلفه فاستدار يستطلع الأمر. رأى التلاميذ يطاردون شيئا لم يتبّنه له بادىء الأمر إلى أن قال له أحدهم وهـو يشير إليه.

- برغوث.

تراجع ينفض ثيابه بفزع. نهض جمجوم. تقدم منه وشـرع يطارد الحشرة. قفزت إلى اللوح الأسود. أطبق بيديه على نقطة ما من الخارطة، وصاح:

- ها هو البرغوث، أمسكت به حين أطبقت عليه يداي كماشة.

ألقى على الأستاذ نظرة شامتة. تبعثرت الدهشة على وجهه المربد وتراجع حتى التصق بالجدار. ظل جمجوم وحده أمـام الطلبة. قال وهو يشير إلى النقطة التي حاصـر فيها البرغوث:

- هنا انتصـرت، وهنا انهزم البرغوث.

وقبل أن يجلس مسح الخارطة مبقيا على نقطة واحدة من دم أحمر.

ليس أوان الحزن

أمسك الأستاذ بأذن جمجوم. ضغط عليها بشدة وصاح:

- قلت لك ألف مرة لا تأت بهذه الثياب.

رفع الطلبة رؤوسهم عن الدفاتر. أحس بنظراتهم إبـرا تغوص فيه حتى العظم. يغرق في بحر هذه النظرات. يتمنى لو يذوب ويتلاشى إلى الأبد. فتح الأستاذ عينيه دهشة واستغرابا ناظرا إلى القلم في يده. خطفه منه وقال من بين أسنانه:

- ما شاء الله، وتكتب بعقبٍ أوصلتَه بقصبة؟!

مد الطلبة أعناقهم، ترك بعضهم المقاعد. تحلقوا من حولـه ليروا عن قرب. رفع الأستاذ القلم عاليا حتى يراه الجميع ثـم نزعه من القصبة فبان كأنه قلامة ظفر. انهالت ضحكات الطلبة في أذنيه شلالا بلا قرار. أخرج الأستاذ من علبة سجائره واحدة، غرسها في القصبة وأشعلها. نفث الدخان محركا رأسه بنشوة مصطنعة وغمغم:

- مصاصة رائعة.

نزع السيجارة بعنف وألقى القصبة أرضا وداسها. أحس جمجوم بالقدم تسحق عظمة من عظامه. ألقى الأستاذ بالقلم في وجهه وزعق:

- إما أن تكتب كسائر التلاميذ بقلم حبر أو رصاص كامل أو تبقى في البيت.

يغرق في المقعد حتى أذنيه. يتحير أين يخبئ عينيه ووجهه ممن حوله. يطلق الطلبة لضحكاتهم العنان. يمسك جاره بدفتره. يدفعه إلى الأستاذ:

- انظر إلى دفتره يا أستاذ.

لم تسعفه حركته الغريزية في إخفاء الدفتر. يد الأستاذ كانت إليه أسرع. شرع يقلّبه بامتعاض. مطّ شفتيه وقال:

- آه فهمت إصرارك على الكتابة بالرصاص، تمسح اليوم ما كتبته بالأمس. دفتر واحد يكفيك طيلة العام.

قذف بالدفتر إلى أعلى. اصطدم بالسقف. رآه يهبط مظلة مثقوبة. صاح الأستاذ وهو يمسك بشعره يشده إليه:

- دفتر هذا أم ممسحة بلاط؟

حذا الطلبة حذو أستاذهم، شـرعوا يتقاذفون الدفتر. غزاه شعور قاتل بالإذلال. تغلي دماؤه وتتبخر. ينهض. يخلص دفتره منهم. يقف أمام الأستاذ مباشرة. يغرس عينيه فيه حتى القعر. يقول بصوت لم يألفه في نفسه من قبل:

- أنا حر.

يقهقه الأستاذ عاليا. يضغط على أسنانه ويلطمه لطمـة يشعر أنهـا أرحـم مـن كل ما حـدث. تكوم في مقعده. يتسمع إلى أشياء كثيرة في داخله تتكسـر. لم يُجدِ مع هذا الأستاذ أنه يحضـر دروسه أولا بأول. لعل هذا ما يدفع هؤلاء التلاميذ إلى الضحك منه والحقد عليه، أما هذا الاستاذ فأي عذر له ولماذا يقف منه مثل هذا الموقف؟ كان يظن اجتهاده شمسا تعمي العيـون عن رؤية ثوبه اليتيم وقلم الرصاص؛ وكذلك الحقيبة المصنوعة مـن بقايا ثوب لأمه قديم كانت تلبسه في حياة أبيه قبل أن يستشهد. ما تخلت عنه له إلا بعد أن احتلته الرقاع من كل جنس وملـة. ليت أمه مكانه الآن ترى وتسمع. وحده من يجرب عليه هـؤلاء صلاحية النكات للضحك فلا حقيبة من الجلد له؛ ولا قلم حبر ولا يعرض كل يوم زيا جديدا مثلهم. ليتها تبقيه في البيت فهذا أرحم من عذاب مزمن يلاقيه على أيدي هؤلاء... كم مرة طوح بالحقيبة ونزع الثوب وأقسم أن لن يغادر البيت! فتأخذه بين

ذراعيها تقبله وتبكي. هذه الأم لا تملك غير الدموع والحب والقبلات، تجبره على الاعتذار والضحك وقلبه يقطر بالحزن. كم هي جميلة أيـام الجمع والعطل الرسمية؛ أما الغارات الجوية فأكثر جمالا وفتنـة... صفارات الإنذار والانفجارات تفرض الخوف على الجميع وتصبغ بالصفرة وجوها كانت متوردة بفعل اللحم والفاكهة والحلوى، حتى الأستاذ يستولي عليه الخوف، تشرد عيناه ويرتبط لسانـه. وحده الذي يصادقه الخوف فلا يدوسه بخيله وسنابكه حين تقع الواقعة. يتزاحم التلاميذ والأستاذ إلى الخارج أما هو فينتظر. فعلام يخاف؟! صفارات الإنذار تفتح أمامه عوالم سحرية محببـة. يتخيل المدرسة وجبة للقنابل دسمة تتركها رمادا والأستاذ فحمة سوداء بلا معالم؛ والتلاميذ صـرعى حقائبهم مفرغة مما بداخلها من دفاتر وأقلام حبر ورصاص وحلوى وكعك. هذه فرصته ليجمع أشياءهم ويعود بها إلى البيت. ستزجره أمه على فعلته؛ لن يستمع لها. سيلتهم الحلوى وسيكتب بالاقلام على كل الدفاتر.

ينتزعه من خواطره زامور متقطع. يرهف السمع أكثر. حقا هذه صفارة إنذار وهدير طائرات! هذه أول امنية تتحقق ليت؛ أحلامه كلها تتحقق بمثل هذه السـرعة المذهلة. ماج التلاميذ في غرفة الصف والتصق الأستاذ بالزاوية يرتجف، انطفأت نظراته الشرسة في عينيه. تساقط في عيني جمجوم الفرح. يشرب عن الوجوه خوفا على ظمأ شديد الصفارة كما يراها تجتث أعصاب

هؤلاء من الجذور.. ليت أحلامه كلها تتحقق بمثل هذه السـرعة.

ترك التلاميذ مقاعدهم، وقفوا كلهم في حلق الباب. بدأ يرشح بهم للخارج. الأستاذ يزاحمهم ليخرج قبلا منهم. ينهض جمجوم تسبقه ابتسامة. يتقدم من الأستاذ. يغرس عينيه فيه. يربت على كتفه. يقول:

- لا تخف يا أستاذ.

ترفرف عيناه طائرا مهيض الجناح. يدافع التلاميذ ويخرج. يخرجون من بعده. تخلو الحجرة إلا منه، يتلفت حوله بهدوء. يتمطى في صدره ارتياح عجيب. يرى الحقائب افرغت ما بداخلها على الارض، والمقاعد كلها تغازل أعصابه. «لن يفطن إليه أحد في الغد إذا ما الدراسة انتظمت». يصارع رغبة ملحة أن يجمعها، هز رأسه وتنهد. دس ذراعه في الحقيبة وخـرج على مهل. استقبله شارع خال موحش. يمشي أبطأ مـن سلحفاة. الطائرات في السماء طيور ملونة تلتحف السحب؛ لها منظر في غاية السحر. يطلق صفيرا منغما يطوح بالحقيبة. يركلهـا ينطحها بعضها... أطلَّ عليه أكثر من رأس يهيب به أن يسـرع. هز كتفيه. لماذا قد سبقه إلى الموت أبوه؟ مات غدرا، كان صدره حقلا مزروعا بالرصاص. قال البعض عنه سـرا: إنه بطل. علقوا صورته على الجدران. أمه قالت إنها كانت تظن أنه قدم بموته شهـــادة سلوك حسن ستخفف عنهما أعباء العيش؛ وقالت إنها

كانت في ظنها مخطئة. حتى الشمس غدت أكثر بخلا من ذي قبل لا تـزور حجرتهما الواطئة في العام ولو مرة... ليته يموت... ليته الآن يموت... لـن يحزن عليه أحد. أمه ستبكي، ستنسى، لن يترك وراءه زوجـة وأولادا يشقون من بعده، لقد أشقاه أبوه، وأمه أيضا في منتهى الشقاء.

تنبه على سكون مطبق. لا هدير ولا صافرات إنذار. السماء يراها معتمة وبلا لون محبب. ينتشر الناس في الشوارع، الفرحة تغمر الجميع. لا يرى مبررا لهذه الفرحة. تنطبق جدران المنازل بعضها على بعض. يضيق الشارع. يتحول تدريجيًّا إلى كومـة سوداء.

انطفأ السـراج. أكلت الفتيلة بعضها بعدما نفذ الـكـاز، هدهدته أمه ونام واستيقظ. كانت تبكي وتذكر والده. تمنى لو رآه مرة قبل موته. مات غدرا... يحس بالاختناق.. أين عساه يذهب؟ تقع عيناه على جسم يلمع... قلم حبر ربما سقط من أحدهـم، أسقطه الفزع، هل يأخذه؟ هل تعتبرها أمه سـرقة؟ إنه يجده ولا يسـرقه... الأولاد يضحكون... والأستاذ يريد قلم حبر. انحنى. تناوله برفق هدهده بعينيه ويديه. غطاؤه أصفر لماع، ربما كان من ذهب. لن ينطفئ السـراج، لن تبكي أمه في العتمة، أبوه مات في الليل ولكنهم يضحكون... الأستاذ حطم القصبة. ينزع الغطاء، كأنما سمع صوت انفجـار. هـل عادت الطائرات؟ أين صافرات الإنذار تطوى السماء في عينيه. يتلاشى كفقاعة

صابون. تحوم حوله غربان سوداء...فجأةً ينطفئ السـراج.

حين فتح عينيه تقطعت في رأسه حبال غليظة. رأى أمه تنحر ابتسامتها الدموع. يحاول أن ينهض شيء ما يشده إلى سـرير أبيض نظيف. طوح عينيه في كل اتجاه.

- اين القلم؟

أخفت أمه وجهها بين يديها وأجهشت بالبكاء.

- اين أنا؟

مسحت على شعره قبلته وقالت:

- أنت معي. معي أنا. أنا أمك.

يبتسم. يحاول أن يربت لها كتفها، أن يمسح دموعها، أثقال لا حصـر لها تضغط على صدره وذراعه. يلقي نظـرة على ذراعه المعلقة. يدرك توا ما حدث. الطائرات تلقي الدمى والحلوى تغازل الصغار. حظه السيء أن ذراعه فقط أصيبت. يرى وجه أمه مشرقا بالدموع، يبتسم لها فتبسم وتقبله.

- سأشتري لك قلم حبر و... و .. ودفتر.

تكفكف دموعها.

- وحقيبة.

يشيح بوجهه بعيدا. لا يريدها أن تستمر في الكذب وهو ما عاد يريد منها شيئا. أدار وجهه إليها. حرك رأسه ممانعا. زادت ابتسامتها اتساعا. يتحول وجهها إلى حقل سنابل لثمت الشمس بعدما استحم بالمطر.

سكن التلاميذ على المقاعد. وقف الأستاذ أمامهم. نادى بصوت يقطر حبا:

- جمجوم.

ترك مكانه واضعا حقيبته الرثة على رأسه. لأول مرة لا يشعر بالخجل والخزي... وضع الأستاذ يده على كتفه. أمطره بكلمات الحب والإعجاب. تناول رزمة من الدفاتر وقبضة أقلام. قال وهو يدفعها إليه:

ـ أنت ولد شجاع وهذه لك.

ألقى على الأستاذ نظرة متحجرة نقلها إلى الأشياء في يده. يراها أفاعي تمد نحوه ألسنة دقيقة ذوات شعب. تراجع الى

الوراء. رفع يده السليمة. قال بصوت رددته جدران المدرسة:

- سيمر وقت طويل قبل أن أتعود الكتابة بيدي هذه.

ومضى إلى مكانه. جلس بهدوء. هز الأستاذ رأسه. ومط التلاميذ شفاههم عجبا إذ لم يروا سببا لهذا الرفض وهو معدم.

جمجوم لا يحني رأسـه

ظلت يد جمجوم قابضة على الباب المغلق فيما بادر المجتمعين بقوله:

- لم أجمعكم في بيتي لأطلب لنفسي شيئا لم أستطع الحصول عليه من المدير، فأنتم على علم بما يحيطني من تقدير واحترام.

وقف السبتي كالرمح وقال:

- أنا أوافق على كل كلمة يقولها جمجوم.

شكره على هذه الثقة وقال بلطف:

- ولكن ليس قبل أن أوضح ما جمعتكم من أجله.

قال السبتي:

- لم نعهد منك إلا الخير.

طاف جمجوم بعينيه في الوجوه المستطلعة واستطرد:

- رأيت أن الإنحناء للمدير كلما لاح أو ظهر أمر مشين عليكم أن تترفعوا عنه، هذا ماجمعتكم من أجله.

طغت همهمات الاستحسان لهذا الاقتراح، تابع جمجوم كلامه:

- أقول هذا وأنتم تعرفون أنني لا أنحني لغير الله.

تململ السبتي ونهض معتذرا عن البقاء لأمر هام، ولم ينس أن يقول بحرارة:

- كل ما تتفقون عليه أنفذه بالحرف الواحد.

استوقفه جمجوم قبل أن يبلغ الباب وقال محذرا:

- تذكر يا سبتي أنك أكثرنا استفادة من هذا القرار بحكم وظيفتك سكرتيرا له تدخل وتخرج، باختصار أنت أكثر الموظفين عرضة لاعوجاج عمودك الفقري.

هز رأسه مؤمنا على كلامه؛ وخرج يقبض بأسنانه على ابتسامة صفراء. مال رجل برأسه الأشيب على جمجوم.

- والحـل؟

- القضية واضحة: لا انحناء؛ هذا في رأيي هو الحل.

انبرى كل منهم بحل، تشابكت الحلول من ألسنة ثرثارة. وقف رجل ذو رأس أصلع، طلب من الجميع أن يسكتوا وأن يسمعوه.

- ليس هناك من حل أجدى من أن يضع كل منا طربوشـا فضفاضا على رأسه؛ فإذا انحنينا وسقط ففي هذا عار ما بعده عار.

هللوا لهذا الاقتراح وباركوه. رفع شاب طويل الشعر أشقر يده معترضا وقال بحزم:

- لن ألتزم بلبس الطربوش، فرأسي ليس عورة أخفيها.

قال صاحب الاقتراح محتدا:

- يشهد الله أن ليس لما قلته شأن بالصلع.

قال الشاب وهو يمرر أنامله على شعره بينما يده الأخرى تحشو غليونه بالتبغ:

- قلت لن ألتزم بلبس الطربوش يعني لن التزم.

صوبوا إليه نظرات مشحونة بالغيظ، فأردف وهو يحشو عيونهم بالشك والارتياب.

- ليست القضية فوق الرأس بل داخلها.

ابتسم الأصلع بارتياح. تململ الأشيب وغمغم من بين أسنانه:

- ليس لديكم معشر الشباب غير الغرور والحذلقة في الكلام.

أخذ جمجوم يمتص التوتر الذي ساد على الجلسة ثم قال:

- ياجماعة المهم ألا ننحني.

كان جمجوم أول الوافدين على الشركة، لم يجد أمامه غير المدير وإلى جانبه السبتي، ألقى تحية الصباح وتابع سيره إلى الداخل. استوقفه المدير قائلا:

- الآن فقط أدركت أن ثقتي بك في غير محلها.

رأى شباكا منصوبة في عينيه بلا قرار.

- لم أعمل ما يضـر بسير العمل، كل ما طلبته أن يحتـرم الموظف نفسه.

ثم وهو يلقي على السبتي نظرة احتقار باردة.

- وأنت يا سبتي من ضمن الموظفين.

هز المدير رأسه ساخرا.

- لا بأس. قف وانظر.

أخذ الموظفون بالتوافد فإذا ما مر أحدهم من أمام المديـر انحنى عميقا؛ فيسارع السبتي الى التقاط طربوشه الـذي سقط فيسقِط المدير نظرة شامتة على جمجوم مرددا: لا بأس. أقبـل الشاب ذو الشعر الطويل الأشقر، ألقى على المدير التحية بـلا انحناء وتابع طريقه مرفوع الرأس، تمدد صدر جمجوم بتنهدة ارتياح وأعاد إلى المدير نظراته الشامتة.

مال السبتي على المدير وقال يطيب خاطره:

- لا تبتئس سيدي فمشهود لهذا بالشذوذ.

وانطلق يوزع الطرابيش على أصحابها طالبا إليهم أن يحرروا مطالبة بأثمانها. حملوها وتحلقوا من حول جمجوم، وأعربـوا

له عن أسفهم لسقوطها غير المقصود، ووعدوه أن يربطوها بخيوط تمنعها من السقوط في المرة القادمة. نظر إليهم بازدراء وقال وهو يضع يده في يد الشاب طويل الشعر:

- حقا القضية داخل الرؤوس لا فوقهـا.

وقبل أن يغادر الاثنان بوابة الشركة للأبد قال جمجوم:

- لا تنسوا أن تحرروا مطالبة بثمن الخيوط.